کلب آل باسکرفیل

مغامرات شيرلوك هولمز

كلب آل باسكرفيل

تأليف
آرثر كونان دويل

ترجمة
محمد يحيى عبدالكريم

أرثر كونان دويل

ولد آرثر كونان دويل لأسرة متوسطة الحال في إدنبرة في إسكتلندا في الثاني والعشرين من أيار (مايو) عام ١٨٥٩م، والتحق بكلية الطب فيها وعمره سبعة عشر عاماً وكان من مدرسيه في الكلية الجراح الشهير الدكتور جوزيف في، وهو الذي أوحى إليه شخصية شيرلوك هولمز التي ابتكرها بعد ذلك.

في عام ١٨٨٢م حصل دويل على شهادة الطب من جامعة إدنبرة، وكان يحلم بأن يصبح جراحاً وخبيراً في التشخيص مثل الدكتور بل، ولكن قلة المال اضطرته إلى العمل طبيباً على سفينة لصيد الحيتان.

بعد ذلك مارس مهنته في منزل صغير استأجره في بعض ضواحي بورتسماوث، ولكن عدد المرضى كان قليلاً فاتجه إلى الكتابة أملا في الحصول على بعض الدخل الإضافي. وقد كتب بعضاً من قصص المغامرات لمجلات الفتيان، ولكن أجره عنها كان ضئيلاً، وفشلت

روايته الأولى في العثور على ناشر.

وفي غمرة إحساسه باليأس فكر في أساليب الدكتور بل في التشخيص وقرر أن يستخدمها في قصة يكون بطلها واحداً من رجال التحري؛ وهكذا ولد شيرلوك هولمز في رواية (دراسة قرمزية) التي نشرها دويل سنة ١٨٨٧م.

لقد ابتكر دويل شخصية تفيض بالحياة، حتى إن الجماهير رفضت أن تصدق أنها شخصية خيالية! وكان المؤلف يتلقى بانتظام خطابات موجهة إلى هولمز تطلب مساعدته في حل قضايا حقيقية، وبعض هذه القضايا أدى إلى كشف قدرة دويل نفسه.

كانت إحدى هذه الحوادث تتعلق برجل سحب كل أمواله من البنك وحجز غرفة في أحد فنادق لندن، ثم حضر حفلاً عاد بعده إلى فندقه حيث أبدل ملابسه ثم اختفى. وعجز رجال الشرطة عن اكتشاف مكانه، وخشيت أسرته أن يكون قد أصيب بسوء، لكن دويل حل المشكلة سريعاً إذ قال: (سوف تجدون رجلكم في غلاسكو أو إدنبرة، وقد ذهب هناك بمحض إرادته. إن سحب كل أمواله من البنك يشير إلى الهروب المتعمد، والحفل الذي كان فيه ينتهي في الساعة الحادية

عشرة، ولما كان قد أبدل ملابسه بعد عودته فلا بد أنه كان ينوي القيام برحلة، والقطارات السريعة المتجهة إلى إسكتلندا تغادر محطة كينغز كروس عند منتصف الليل)- وقد عثر على الرجل في إدنبرة فعلاً!

كان آرثر كونان دويل رياضياً متعدد المواهب، فقد مارس الملاكمة وكرة القدم والبولينغ والكريكت، وكان خطيباً مفوهاً ومحاضراً ناجحاً ومحاوراً بارعاً، وقد ذاعت آراؤه وأفكاره المتنوعة في الطب والعلم والأدب والسياسة والاجتماع.

وفي عام ١٩٠٠م تطوع الدكتور دويل في حرب البوير (في جنوب إفريقيا) وصار كبيراً للجراحين في واحد من المستشفيات الميدانية، وفي نهاية الحرب منح وسام الفروسية ولقب (سير) تقديراً لخدماته. وقد أصدر بعد عودته إلى إنجلترا كتاباً مهماً عن هذه الحرب.

وتوفي السير آرثر كونان دويل في السابع من تموز (يوليو) عام ١٩٣٠م بعد أن بلغ الحادية والسبعين، بعد ثلاث سنوات من كتابة آخر قصصه عن شيرلوك هولمز وبعد مرور أكثر من أربعين عاماً على أول ظهور علني لهذه الشخصية الخارقة.

شيرلوك هولمز وعالمه

ربما كان شيرلوك هولمز أشهر الشخصيات الخيالية في التاريخ، بل إنه يكاد يفوق في شهرته كثيراً من مشاهير العالم الحقيقيين. وقد بلغ من شهرة هذه الشخصية أنها فاقت شهرة مبتكرها، آرثر كونان دويل.

استوحى دويل شخصية هولمز وصفاته من الدكتور جوزيف بل الذي درسه في كلية الطب. كان الدكتور بل يتمتع بموهبة عظيمة في الملاحظة وأسلوب التفكير المنطقي، وكان يثير اهتمام تلاميذه بقدراته الاستنتاجية الفذة، فهو لم يكن ماهراً فقط في التعرف على علل المرضى، بل وفي معرفة شخصياتهم ومهنهم وتفصيلات خفية عنهم أيضاً. كان يقول لأحد المرضى مثلاً: (أنت ضابط سرح من الجيش حديثاً، وقد عدت لتوك من بربادوس، وأنت تعاني من داء الفيل). وبعد أن تسيطر الدهشة على المريض والطلبة على السواء يشرح الدكتور بل الأمر قائلاً إن الرجل يبدو جندياً من هيئته، وعدم خلع قبعته عند دخوله الغرفة

يدل على أنه ترك الخدمة حديثاً، وهو يملك مظاهر السلطة كتلك التي توجد لدى الضباط، وتدل بشرته التي لوحتها الشمس والمرض الذي يشكو منه على أنه جاء من منطقة استوائية، وقد جاء من بربادوس لأن هذا المرض بالذات منتشر هناك!

(ولد) شيرلوك هولمز في عالمه الخيالي- سنة ١٨٥٤م وحصل على شهادة جامعية لم يحددها دويل، ثم احترف مهنة (محقق خاص) منذ نحو سنة ١٨٧٨م، وكان يقيم في شارع في العاصمة البريطانية لندن، ورقم البيت الذي يقيم فيه هو (٢٢١ ب). وقد لا نبالغ إذا قلنا إن هذا العنوان (٢٢١ ب شارع بيكر) هو أشهر عنوان في العصر الحديث! وقد برع هولمز في كشف الجرائم وحل الألغاز الغامضة بفضل دقة ملاحظته وقدرته العظيمة على الاستنتاج والتحليل المنطقي، بالإضافة إلى غزارة معلوماته واطلاعه الواسع على العلوم المختلفة.

أما الدكتور واطسون، صديق هولمز ومساعده الذي يرافقه في قصصه كلها، فلا يكاد يقل شهرة عن هولمز نفسه، وهو راوية القصص الذي يقصها علينا (كما فعل بعد ذلك هيستنغز في كثير من مغامرات بوارو). وهو طبيب ولد نحو سنة ١٨٥٢م وتخرج طبيباً سنة ١٨٧٨م،

ثم انضم إلى الجيش البريطاني، ثم عاد إلى بلده وتقاعد من الجيش بعدما أصيب في إحدى المعارك، وعندها تعرف إلى شيرلوك هولمز في مختبر الكيمياء بمستشفى ستامفورد في أوائل سنة ١٨٨١م، ولم يفترق الصديقان بعد ذلك قط. وقد تزوج الدكتور واطسون في أواخر سنة ١٨٨٦م، لكن دويل لم يشأ أن يعرفنا إلى زوجته ولم يذكر لنا اسمها.

في قصة (المشكلة الأخيرة) التي نشرت في نهاية عام ١٨٩٣م (قتل) دويل بطله شيرلوك هولمز، لكنه واجه احتجاجاً عارماً من جماهير القراء فقرر إعادة إحياء هذه الشخصية الخيالية من جديد، فعاد هولمز إلى الظهور مرة أخرى في أواخر عام ١٩٠٣م ليستأنف حل القضايا الغامضة.

قصص شيرلوك هولمز

أول قصة نشرها دويل كانت في عام ١٨٧٩م، وهي قصة قصيرة عنوانها (إفادة السيد جفسون)، أما أول رواية نشرها من بطولة شيرلوك هولمز فكانت (دراسة قرمزية)، وقد صدرت في بريطانيا عام ١٨٨٧م فلم يكد يحس بها أحد، لكنها حققت نجاحاً معتدلاً في الولايات المتحدة. وبعدها نشر رواية طويلة ثانية من بطولة شيرلوك هولمز، وهي رواية (علامة الأربعة) التي نشرت عام ١٨٩٠م فوطدت شخصية هولمز في بريطانيا وأمريكا على السواء.

وفي السنة التالية (١٨٩١م) بدأ نشر مجموعة (مغامرات شيرلوك هولمز) في حلقات شهرية في مجلة (ستراند)، بدءاً بقصة (فضيحة في بوهيميا) التي ظهرت في عدد تموز (يوليو)، فقوبلت هذه القصص بنجاح كبير غير مسبوق في تاريخ الصحافة البريطانية، ودخلت هذه الشخصية الخيالية التاريخ من بابه الواسع، حيث صارت حديث

المجتمع وشغل الناس في أنحاء البلاد.

وقد بلغ عدد قصص هذه السلسلة اثنتي عشرة نشر آخرها في عدد حزيران (يونيو) من عام ١٨٩٢م. ثم ظهرت سلسلة (ذكريات شيرلوك هولمز) التي نشرت في اثنتي عشرة حلقة أيضاً صدر أولها في كانون الأول (ديسمبر) ١٨٩٢م، ويبدو أن دويل بدأ يمل عندئذ من كتابة قصص شيرلوك هولمز، ولذلك (قتله) في آخر قصة من هذه المجموعة في معركة مع البروفسور موريارتي الشرير عند شلالات رايشنباخ في سويسرا! وقد نشرت هذه القصة (وعنوانها (المشكلة الأخيرة)). في كانون الأول (ديسمبر) عام ١٨٩٣م.

وثار جمهور دويل غضباً وانهالت عليه ألوف الخطابات تستنكر عمله وخسرت المجلة عشرين ألف اشتراك، ولكن دويل تمسك بموقفه، فقد شعر بأن شيرلوك هولمز يحول بينه وبين أعمال أكثر أهمية. ثم وافق أخيراً بسبب الإلحاح الذي لم ينقطع على (بعث) شيرلوك هولمز، فأعاده إلى العمل في قصة (مغامرة المنزل الخالي) التي نشرت في مجلة (ستراند) في تشرين الأول (أكتوبر) عام ١٩٠٣م.

وعاد شيرلوك هولمز إلى الأضواء من جديد؛ فقد تبين أنه لم يقتل

على الإطلاق، وفي تلك القصة (المنزل الخالي) شرح دويل كيف نجا هولمز من الموت بأعجوبة، ثم شق طريقه بعد ذلك إلى بلاد التبت لمساعدة اللاما الكبير، ثم عاد إلى لندن ليحقق في وفاة ابن أحد اللوردات بطريقة غامضة. وقد أثارت عودة شيرلوك هولمز في مجلة (ستراند) في بريطانيا ومجلة (كوليرز) في أمريكا حماسة بالغة في نفوس عشاقه المخلصين وحققت للمجلتين مبيعات غير مسبوقة. واستمر نشر سلسلة (عودة شيرلوك هولمز) (التي بلغ عدد حلقاتها ثلاث عشرة حلقة) حتى كانون الأول (ديسمبر) ١٩٠٤م.

وكان دويل قد نشر قبل هذه السلسلة رواية شيرلوك هولمز الطويلة الثالثة (كلب عائلة باسكرفيل)، وقد استمر نشر حلقاتها من آب (أغسطس) ١٩٠١م إلى نيسان (أبريل) ١٩٠٢م، وهي أشهر روايات شيرلوك هولمز على الإطلاق.

وبعدها صدرت سلسلة (الظهور الأخير) التي تضم سبع قصص نشرت على حلقات متباعدة بين أيلول (سبتمبر) ١٩٠٨م وكانون الأول (ديسمبر) ١٩١٣م، ثم الرواية الطويلة الرابعة (وادي الرعب) (٩/ ١٩١٤م-٥/ ١٩١٥م)، وهي أعظم روايات شيرلوك

هولمز كما يقول النقاد. وأخـيراً سلسلة (قضايا شيرلوك هولمز) (١٠/ ١٩٢١م-٤/ ١٩٢٧م) التي نشرت آخر حلقاتها بعد أربعين سنة تماماً من صدور أولى روايات شيرلوك هولمز.

ولم تقتصر مؤلفات آرثر كونان دويل على قصص وروايات شيرلوك هولمز، فقد ألف كتباً كثيرة غيرها، منها روايات تاريخية ورومانسية ومسرحيات، بالإضافة إلى عدد كبير من الكتب والدراسات الغير الروائية.

والحقيقة أنه كان كاتباً غزير الإنتاج، فقد بلغ ما تركه من المؤلفات نحو مئة وستين، منها ستون من قصص وروايات شيرلوك هولمز، وخمس روايات من بطولة شخصية خيالية أخرى ابتكرها هي شخصية عالم اسمه البروفيسور تشالنجر، وأشهر هذه الروايات هي (العالم المفقود)، ونحو أربعين رواية من الروايات المتنوعة، بالإضافة إلى عشر مسرحيات، وأربعة دواوين شعرية، وأكثر من خمسين كتاباً وكتيباً في الشؤون الاجتماعية والسياسية والعسكرية، وكتاب ذكرياته الجميل الذي سماه (ذكريات ومغامرات).

رسام شيرلوك هولمز الأشهر

تعاقب على رسم شخصية شيرلوك هولمز عدد من الرسامين، لكن أشهرهم وأعظمهم- بلا خلاف- كان الرسام الإنجليزي سدني باجيت الذي صاحب روايات هولمز وقصصه منذ ولادتها المبكرة، وهو الذي بلور صورة شيرلوك هولمز وطبعها في عيون القراء على مدار السنين.

والغريب أن المجلة لم تسع ابتداءً خلف سدني باجيت بل خلف أخيه الأكبر ولتر الذي كان قد نجح في رسم رسومات قصتي (جزيرة الكنز) و (روبنسون كروزو)، لكن خطأ في الاتصالات تسبب في دعوة سدني، الأخ الأصغر، لرسم صور القصص الست الأولى التي نشرتها مجلة (ستراند) في النصف الثاني من عام ١٨٩١م، وعلى إثر النجاح الهائل الذي لقيته هذه القصص مع رسوماتها التصق سدني باجيت بآرثر كونان دويل لتصبح رسومات هذا بنفس أهمية كتابة ذاك في عالم شيرلوك هولمز. وقد استمر سدني باجيت برسم الصور لقصص

وروايات شيرلوك هولمز حتى وفاته عام ١٩٠٨م، وبلغ عدد ما رسمه خلال هذه السنوات ٣٥٧ رسماً زينت ٣٨ قصة.

وحين توفي سدني استعانت مجلة (ستراند) برسامين آخرين، فشارك في رسم السلسلة الجديدة (الظهور الأخير) كل من ولتر باجيت، الأخ الأكبر لسدني، وآرثر تويدل وجلبرت هاليدي وأليك بول وجوزف سمبسون. أما السلسلة الأخيرة- وهي (قضايا شيرلوك هولمز)- فقد رسمها ثلاثة من الرسامين هم أ. جلبرت وهاوارد إلكوك وفرانك وايلز.

هذا في نسخة هولمز البريطانية التي نشرتها مجلة (ستراند)، أما في أمريكا فقد استعانت مجلة (كوليرز) بعدد من الرسامين أشهرهم فردريك دور ستيل، ومنهم وهـ هايد وجوزف فريدرتش ورتشارد غوتشمت.

كلب آل باسكرفيل

-١-

وجه صديقي (هولمز) الكلام إلى ضيفه:

-«قل لي كل ما تعرف عن القضية »

قال د.. (جيمس مورتيمر) وهو يخرج ورقة عتيقة من جيبه:

- «كانت هناك صداقة حميمة بيني وبين المرحوم السير (تشارلس باسكرفيل).. بالإضافة إلى كوني طبيبه الخاص.. وقد كان رجلا عقلانيا لا يبالي بالخرافات، لكن هذه الوثيقة كانت تثير اهتمامه إلى حد كبير» ثم نظر إلى (هولمز) وقال:

-«هذه الوثيقة تتحدث عن أسطورة خاصة بآل (باسكرفيل) وأرجو أن تسمح لي بقراءتها لأنها تتعلق بما نحن فيه».

أغمض (هولمز) عينيه ليحسن الإنصات، واسترخى في مقعده.. بينما راح صوت د. (مورتيمر) يتردد حاكيا قصته الغريبة:

-«هأنذا أحكي قصة كلب آل (باسكرفيل) كما سمعتها عن أجدادي.. فقد كان قصر (باسكرفيل) آل إلى (هوجو) الشرير... الذي اشتهر أمر فسقه وفجوره في البلاد.. وأحب هذا الشيطان ابنة مزارع فقير، لكن الفتاة صدته وأبت أن تكون له.

«وفي ليلة اغتنم الفتى فرصة غياب أهلها، واختطفها.. وعاد بها إلى قصر أجداده، حيث حبسها في الطابق العلوي، بينما راح ورفاق السوء يثملون ويصخبون.

«كانت البائسة خائفة.. وقد حاولت الفرار هابطة على غصون النباتات خارج نافذتها.. وراحت تركض في الظلام قاصدة العودة لذويها»

«لكن (هوجو) شعر بفرارها فثار غضبا، ونزل ليخبر رفاقه.. عندها اقترح سكير منهم أن يبعثوا في أثرها بكلاب الصيد.. وراقت الفكرة لـ(هوجو) فأتى بمنديل من مناديل الفتاة، وقربه من أنوف الكلاب..

فانطلقت هذه كالشياطين في ضوء القمر تبحث عن الفتاة البائسة».

«أما (هوجو) فانطلق بجواده وراء الكلاب»

«بعد قليل انطلق رفاقه السكارى يبحثون في الفلاة المحيطة بالقصر عن الفتاة أو الكلاب أو (هوجو). لم يجدوا سوى الجواد الأسود يركض دون فارس في الفلاة وقد أصابه الجنون.. وواصل الرفاق طريقهم متوجسين خيفة.. كان عواء الكلاب يتعالى.. وأخيرا وجدوها تقف على حافة هاوية وهي تنظر لأسفل في هلع»

«ودنوا من الحافة ونظروا لأسفل.. فرأوا الفتاة البائسة في قاع الهاوية، وقد سقط ضوء القمر عليها.. كانت جثة هامدة»

«لكن ما أثار رعبهم أكثر من سواه هو (هوجو باسكرفيل) كان ممددا جوار الفتاة يقف فوق جثته كلب عملاق أسود كالليل.. وكان الكلب يطبق على عنق (هوجو) بفكين هائلي الحجم، ثم انتزع العنق مرة واحدة... ورفع نحوهم عينين تتقدان نارا، وفكين يسيل الدم منهما».

«كان هذا كافيا كي يفر الفتيان راجعين إلى ديارهم.. وقد مات أحدهم رعبا، بينما أصيب الباقون بانهيار عصبي بقية حياتهم»

«لكم هي قصة الهول الذي عاش يلاحق أسرة (باسكرفيل) منذ ذلك الحين.. ولقد لقى أكثر من واحد من أفرادها حتفه بطريقة غامضة

منكرة.. إن اللعنة تطاردنا جيلا بعد جيل منذ فتح (هوجو) أبوابها»

«وأنصح الأجيال القادمة:

لا تمشوا في الفلاة ليلا حين تخرج قوى الشر الخفية كي نمارس سلطانها في الظلام»

وانتهى د. (مورتيمر) من قراءة الوثيقة.. ثم قال ل(هولمز):

-«والآن دعني أتل عليك هذا الجزء من صحيفة (ديفون شاير) التي صدرت في ١٤ يونيو.. وهي تحكي عن وفاة سير (تشارلز باسكرفيل)..»

لاحت أمارات الاهتمام على (هولمز).. فطفق د. (مورتيمر) يتلو:

-«صدمت مقاطعة (ديفون شاير) لهول أنباء وفاة سير (تشارلز باسكرفيل) مرشح مجلس العموم.. فقد كان الفقيد عائدا من جنوب إفريقيا، حيث جمع ثروة من أعمال المناجم، وأقام في قصر أجداده بالمقاطعة، ولم يكن قد أعقب ولدا، لهذا كرس حياته لخدمة أرض أسلافه»

«عاش سير (تشارلز) في قصره عزبا، يقوم بخدمته اثنان هما (باريمور) وامرأته.. وقال الاثنان إن سير (تشارلز) كان معتدل

الصحة في أواخر أيامه.. ضيق الصدر واهن القلب، وهذا ما أيده طبيبه د. (مورتيمر).. »

«وفي يوم الوفاة نهض سير (تشارلز) للقيام بجولته الليلية المعتادة في الممر المؤدي للقصر واتجه إلى الأشجار وهو يدخن سيجارا كدأبه في كل ليلة».

«وفي منتصف الليل رأى (باريمور) الباب الخارجي للحديقة مفتوحا.. فأثار هذا قلقه، وحمل مصباحه ليتبين ما هنالك.. وكان أن وجد جثة سير (تشارلز) عند نهاية الممر خارج الحديقة»

«ويقول (باريمور) إن سير (تشارلز) كان يمشي على مجمع قدميه في بداية رحلته.. ثم تغيرت خطواته بعد عبور البوابة فراح يمشي على أصابع قدميه، وقد أثارت هذه المقولة حيرة وأي حيرة»

«وصرح تاجر خيل من الغجر، أنه كان دانيا من مكان الحادث، حين سمع صوت صراخ لم يدرك مصدره»

«لم تكن ثمة آثار عنف على جثمان سير (تشارلز).. غير أن الوجه كان متقلصا رعبا حتى إن ملامحه تبدلت تماما.. وكشف تشريح الجثة

أن سبب الوفاة كان نوبة قلبية عنيفة»

«والوريث الجديد للقصر هو الوحيد.. وهو مستر (هنري باسكرفيل) ابن أخي الفقيد، وهو مقيم حاليا في أمريكا.. لكن ثروة طائلة قد آلت إليه بوفاة عمه»

وانتهى د. (مورتيمر) من القراءة.. فسأله (هولمز):

«لابد أن لديك من الأسباب ما يدعوك لطلب رأيي»

«أنا يا مستر (هولمز) رجل علم.. يكره أن يقال عنه إنه يصدق خزعبلات الفلاحين.. لكني أعرف أن خرافة كلب (باسكرفيل) التي حكيتها لك كانت تملك من سير (تشارلز) كل مملك قبل وفاته.

وكان يؤمن بها ويتحاشى السير في الفلاة ليلا» «لكم من مرة سألني عما إذا كنت أسمع عواء كلب هائل، أو أرى وحشا غريبا في الفلاة المحيطة بالقصر.. وذات مرة زرته قبل وفاته فوجدته ينتظرني عند الباب.. ورأيت عينيه تتسعان هلعا.. نظرت ورائي فرأيت حيوانا أسود ضخم الجسد في حجم عجل يركض مبتعدا.. حاولت اللحاق به، لكنه كان قد ذاب في الظلام»

«وأحدثت هذه الحادثة أسوأ الأثر لدى سير (تشارلز). وبدأ فؤاده يضعف.. لهذا اقترحت عليه أن يسافر بعض الوقت إلى (لندن) لينسى كل شيء عن قصر أجداده المخيف والفقر المحيط به»

«وفي ليلة وفاته أرسل خادمه (باريمور) عامل الإسطبل (بركنز) كي يأتي بي.. هرعت إلى القصر ولاحظت ما لاحظه (باريمور) من اختلاف في آثار الأقدام.. لكني لم أر آثار أحد سوى أقدام (باريمور)..»

«كان سير (تشارلز) منبطحا على وجهه، وأصابعه قد حفرت الأرض.. وعلى وجهه كانت أعنف أمارات هلع رأيتها.. وقمت بالبحث حول الجثة فوجدت آثار أقدام حديثة العهد.. آثارا غير آدمية»

ونظر لنا بعينين غريبتين.. وبصوت مبحوح أردف:

«آثار أقدام كلب ضخم!»

-٢-

شعرت برجفة تسري في عروقي حين سمعت العبارة الأخيرة، أما (هولمز) فراح يسأل د. (مورتيمر) في حرص:

«هل أنت واثق من رؤيتك هذه الآثار؟»

«كما أنا واثق من أنني أراك»

«ولم يرها أحد سواك؟»

«كانت بعيدة عن الجثة حوالي عشرين مترا.. ويمكن بسهولة ألا تراها.. لكني أؤكد أنها هائلة الحجم»

«هلا وصفت لي الممر الذي هلك سير (تشارلز) في نهايته؟»

«إنه طريق مرصوف بين صفين من أشجار كثيفة ارتفاعها اثنا عشر قدما، ويوجد حزام من العشب يفصل الأشجار عن الطريق.. ويوجد باب صغير على جانب الممر يقود إلى الفلاة... وباب في نهايته يقود إلى المنزل الصيفي».

«هل كان الباب الصغير مغلقا؟»

«كان عليه قفل محكم... لكن أي امرئ يقدر على الوثب فوقه.. والآثار كانت هناك... يبدو لي أن سير (تشارلز) وقف هناك بعض الوقت لأن رماد لفافة تبغه تساقط هناك مرتين... إن المرء ينفث السيجار مرة كل خمس دقائق»

قال (هولمز) في سرور:

«مرحى! إن د. (مورتيمر) يفكر مثلنا يا (واطسون)..»

وضرب بقبضته على ركبته متحسرا... وقال:

«ألا ليتني كنت هناك! الحق أنها قضية شائقة»

قال د. (مورتيمر) في تردد:

«إن هذه القضية تحمل طابعا خارقا للطبيعة... لا أجرؤ على قول هذا، لكن الأساطير قد كثرت في المنطقة إلى حد مريب... لقد رأى الناس في الفلاة وحشا فيه كل صفات كلب (باسكرفيل).. يقولون إنه مخلوق هائل الحجم يشع ضوءا كأنه شبح»

«لقد أجمع الكثيرون على ذات الوصف... ودعني

أؤكد لك أن ملكوت الرعب قد بسط جناحيه فوق المقاطعة.. فلا

يجرؤ على المشي في الفلاة ليلا إلا رجل له قلب من فولاذ»

«وهل حقا- وأنت رجل علم- تؤمن بهذه التراهات؟»

«أنا لا أدري ما أعتقده»

هز (هولمز) كتفيه وقال:

«أرى تناقضا في كلامك يا سيدي.. فقد جئت تطلب عوني، وبرغم هذا أراك تحمل يقينا بأن في الأمر شيئا خارقا للطبيعة يستحيل عليَّ معرفته»

(تشارلز) بل أرغب منك أن تحمي سير (هنري باسكرفيل) الذي سيصل إلى (وترلو) حالا..»

«الوريث المقيم في أمريكا؟»

«نعم... وهو شاب حسن الخلق، وأنا القائم على تنفيذ وصية سير (تشارلز)..»

«هل من ورثة آخرين؟»

«هناك (رودجر باسكرفيل) أصغر ثلاثة أخوة.. وكان سيئ الخلق.. رحل إلى أمريكا الوسطى، ومات هناك بالحمى الصفراء... وهناك أخ أوسط توفى شابا، وخلف لنا (هنري).. وهناك أخ كبير

هو سير (تشارلز) رحمه الله... وأنا أجد عسرا في قبول أن يدخل سير (هنري) قصر أجداده»

«لم لا؟»

«هل تنسى اللعنة المحيطة بهذا البيت؟ أنا أعرف أن سير (هنري) سيلقى ما لاقاه سابقوه.. لكني- من ناحية أخرى- أرغب في أن يتواجد واحد من آل (باسكرفيل) هنا دوما.. فوجودهم ينعش المقاطعة بمشروعات نافعة لا غنى عنها»

«لكن- إذا صحت نظريتك بخصوص وجود قوى مما وراء الطبيعة- فهذا يعني أن الخطر يهدد الوريث في كل مكان.. وليس في (ديفون شاير) وحدها»

«هذا صحيح»

«إذن خذ عربة واتجه لاستقبال سير (هنري) في المحطة.. ولا تقل له شيئا حتى أكون رأيا»

«ومتى تكون رأيا؟»

«أعطني يوما.. وسأكون لك شاكرا لو جئتني في العاشرة غدا ومعك سير (هنري)..»

«ليكن»

وغادر الدكتور (مورتيمر) المكان.. فجلس (هولمز) يبتسم راضيا إذ وجد قضية معقدة بما يكفي.. وسألني:

«هل أنت خارج يا (واطسون)؟»

«نعم»

«إذن أرجو أن تمر على حانوت (برادلي) وتطلب منه أن يرسل لي أفضل ما عنده من تبغ.. وإنني لأرجو- كذلك- أن تتأخر في العودة ليلا كي تتيح لي التفكير في هذه القضية الشائقة»

عدت من النادي في التاسعة مساء ففتحت باب الشقة.

خيل لي أن حريقا قد اجتاح المكان.. دخان كثيف يغطي كل شيء.. وبصعوبة أدركت أن هذا دخان غليون (هولمز) ورأيته وسط السحب جالسا على مقعده الوثير يدخن، وجواره على المنضدة لفافات ورق كثيرة...

قال لي وأسنانه تطبق على الغليون:

«هل أصابك البرد؟ أراك أمضيت وقتك في النادي»

بدت عليَّ الحيرة... فقال:

«هذا منطقي جدا يا عزيزي... فاليوم ممطر وأنت نظيف لم يتسخ

حذاؤك ولم تبتل ثيابك... وأنت بلا أصدقاء سواي، فأين أمضيت اليوم إذن؟»

«ثمة أشياء كثيرة لا يفطن أحد لها برغم وضوحها. وأين تحسبني ذهبت؟»

«ظللت حيث أنت»

«بالظبط.. لكني شربت قدحين من القهوة الممتازة، ودخنت كمية هائلة من التبغ الجيد.. وأرسلت في طلب خريطة ل(ديفون شاير) كي أدرس مسرح الحادث»

ومد يده ليفتح خارطة كبيرة جواره... وأشار إليها:

«هو ذا قصر (باسكرفيل).. توجد غابة حوله.. ثم هي ذي قرية (جريمبن) حيث يقيم د. (مورتيمر)..

ثمة مزرعتنا في قلب الفلاة، هما (فولمير) و(هاي نور).. ثم سجن (برنستون) الكبير هنا»

ثم أشار إلى النافذة التي فتحتها وقال:

«أرجو أن تعيد غلقها يا (واطسون).. فإن الأماكن المغلقة تساعدني على تركيز أفكاري.. ليس إلى حد الحياة في صندوق طبعا»

ثم سألني:

«دعنا نتأمل هذه القضية.. لنر أولا ذلك التغير في آثار الأقدام في الممر.... لقد تكلم عنه -. (موتيمر) وقال إن سير (تشارلز) بدأ في المسير على أطراف أصابعه.. ما معنى هذا؟ إن هذا يبدو سخيفا»

«كان الرجل يجري يا (واطسون).. يجري فارا بحياته... ثم أصيب بنوبة قلبية اجتمع فيها المجهود والذعر فهوى ميتا»

«وما الذي رآه؟»

«لا أدري... لكنه شيء جعله يجن هلعا بالتأكيد جن هلعا... في فراره لم يتجه إلى المنزل حيث الأمان، بل ابتعد عنه.. ويبدو أنه صرخ كثيرا طالبا الغوث- طبقا لرواية الغجري- ثم بح صوته..

وهنا نقطة أخرى:

من الذي كان ينتظره في الممر ليلتها؟»

«ومن قال إنه كان ينتظر أحدا؟»

«هذا واضح... رجل مريض، شيخ يخرج في الليل البارد.. وينتظر عشر دقائق كاملة جوار باب المروج.. ليس هذا بأسلوب من يتريض.. إن القضية قد غدا لها جسد يا (واطسون) فهلا ناولتني القيثار؟ علينا أن ننحي كل شيء عن أذهاننا حتى نلقى د. (مورتيمر) وسير (هنري) غدا».

-٣-

ما كانت الساعة تدق العاشرة حتى جاء زائرنا واستقبلهما (هولمز) في روبه المنزلي.. لقد كان الميعاد دقيقا..

كان السير (هنري) في الثلاثين من عمره، ذا شعر أسود وحاجبين كثين.. وقد لوحت الشمس بشرته مما يشي بكفاحه تحت تقلبات الجو.. وكانت سمات الأورستقراطية والاعتداد بالنفس تتمشى مع ما قيل عن أصله..

قال ل(هولمز):

«كنت قادما لزيارتك يا مستر (هولمز) حتى قبل أن يكلمني د. (مورتيمر) عنك.. فقد حدثت واقعة غريبة نوعا لي.. هذا الخطاب»

كان مظروفا رمادي اللون كتب عليه بخط متعرج:

سير (هنري باسكرفيل)- فندق (نورث مبرلند).. ويبدو أن

مكتب البريد ختمه مساء أمس..

«هل كان أحد يعرف أنك تنتوي الإقامة في ذلك الفندق؟»

«لا أحد سواي ود. (مورتيمر)..»

فتح (هولمز) المظروف فأخرج ورقة مطوية فتحها.. فقرأنا عبارة واحدة تم تكوينها من كلمات مطبوعة ملصقة:

«لا تمش في الفلاة حرصا على حياتك»

وكانت كلمة (الفلاة) هي اللفظة الوحيدة المكتوبة يدويا.

قال (هولمز):

«هلا جلبت لي نسخة من جريدة (التيمس) الصادرة أمس يا (واطسون)؟»

وأحضرت له الجريدة.. ففتحها وراح يتأمل صفحاتها.. ثم نظر إلى العمود الافتتاحي وقال:

«وإذا مقال افتتاحي عن حرية التجارة.. يقول المقال:

هناك فريق يؤكد أن زيادة الضرائب الجمركية تحمي الصناعة المحلية.. نقول لهذا الفريق:

(لا تمش في) هذا الطريق (حرصا على) اقتصاد البلاد.. إن نقص الواردات يؤثر في (حياتك) وحياة كل مواطن»

وفرك كفيه.. وقال بمرح:

«ما رأيك يا (واطسون)؟»

قال سير (هنري) في حيرة:

«إن ضرائب الجمارك هي آخر ما أفكر فيه الآن يا مستر (هولمز)..»

قال (هولمز):

«بل العكس.. إن الرسالة التي وصلتك جاءت من هنا.. فهاهنا تجد كلمات (لا تمش في) و(حرصا على) و(حياتك)..»

هتف د. (مورتيمر) في دهشة:

«إن هذا مذهل يا مستر (هولمز)! كيف عرفت اسم الصحيفة ومقالها الافتتاحي بهذه السرعة؟»

قال (هولمز):

«كما يمكنك يا د. (موتيمر) أن تميز بين جمجمة الزنجي وجمجمة الأسكيمو.. أنا كذلك أميز افتتاحية (التيمس) أنيقة الحروف ثابتة

الحبر من باقي الصحف... هذا شيء واضح.. وقد رجحت أن يكون صاحب الرسالة اختارها من جريدة أمس.. نفس

يوم الإرسال.. ويمكن القول إنه قص الكلمات بمقص أظفار... هذا قطع الورق.. وألصقها بالصمغ فوق الورقة»

«ولماذا كتب (الفلاة) بخطه؟»

«من العسير أن تجد لفظة (الفلاة) في الجريدة..

«فهي لفظة غير شائعة»

«هذا رائع... هل تدلنا الرسالة على شيء آخر؟»

«كما ترون.. العنوان مكتوب بخط ردىء.. وهذا معناه أن مرسل الرسالة رجل مثقف حاول انتحال خط غير خطه.. لأن جريدة (التيمس) شبه قاصرة على المثقفين...

إنه شخص يخشى أن نرى خطه.. ثم هو يتصرف بعجلة كما هو واضح من قلة العناية بلصق الكلمات.. فلماذا هو متعجل؟»

قال د. (مورتيمر):

«هنا تنتهي الحقائق وتبدأ الافتراضات»

«بل نحن نعمل بطريقة علمية منظمة»[1].

ويمكنني أن أذهب أبعد من هذا، فأقول إن عنوان الرسالة على المظروف قد كتب في فندق»

«وكيف تعرف هذا؟»

«سنرى من العنوان أن هناك عسرا واضحا في استخدام المداد.. وقد تم ملء قلم الحبر ثلاث مرات.. ولا أحد يترك قلمه في حالة كهذه ما لم يكن بعيدا عن المحبرة... أي أنه في فندق..

وأراهن أننا لو فتشنا في سلال المهملات الخاصة بالفنادق في (تشيرنج كروس)، لوجدنا جريدة (التيمس) ذات الفجوات إياها»

ثم نظر إلى سير (هنري) سائلا:

«ألم يحدث لك شيء غير مألوف منذ وصلت إلى (لندن)؟»

فكر سير (هنري) قليلا.. ثم قال:

«أنا لا أعرف ما هو مألوف أو غير مألوف بالنسبة لحياة اللندنيين...

(١) ما زالت طريقة (هولمز) في الاستنباط تدرس في كليات شرطة عديدة بالعالم.

لكني لا أحسب فقد فردة حذاء حدثا مألوفا»

«هذا مهم.. أرجو أن توضح لي أكثر»

«لا شيء... تركت الفردة مع زميلتها خارج

حجرتي في الفندق، وفي الصباح لم أجدها.. والخادم لا يعرف شيئا.. لقد ابتعت الحذاء ولم أضعه في قدمي قط.. لقد كان ثمينا يساوي ستة ريالات»

«أعتقد أنها لم تكن سرقة وإنما هي إهمال عادي... وأنك حتما واجد الحذاء»

وهنا كان صبر السير (هنري) قد نفد.. فهو لا يملك أية خلفية عن الموضوع... لهذا طلب من د. (مورتيمر) أن يحكي له بالتفصيل عما يحدث.

وحكى د. (مورتيمر) القصة بالتفصيل.

حين انتهى السرد؛ قال سير (هنري) في دهشة:

«يبدو لي أنني نلت ميراثا ملعونا.. نعم أنا قد سمعت عن كلب (باسكرفيل) منذ طفولتي لكنني اعتبرته خرافة لا أكثر... ثم هناك

ذلك الخطاب»

قال (هولمز):

«يبدو أن هناك من يعرف جيدا ما يحدث في الفلاة.. ويريد حمايتك»

«أو إبعادي لغرض في نفسه» ثم قال في عزم:

«لن يقدر إنسي ولا جني على أن يمنعني من الحياة في بيت أسلافي... فهذا هو قراري النهائي الذي لا محيد عنه.. لكن هذه الأخبار قد فاجأتني يا مستر (هولمز)..

لهذا احتاج إلى بعض الوقت حتى أستوعب ما سمعت... دعنا نلتقي في الفندق اليوم على الغداء يا مستر (هولمز)..» وانصرف الرجلان..

وعلى الفور كف (هولمز) عن الكسل.. انتابه النشاط فهرع يرتدي ثيابه ومعطفه... وصاح في:

«ارتد المعطف والقبعة يا (واطسون).. أسرع!»

وهرعنا إلى الشارع.. فرأينا الرجلين يعبران شارع (أوكسفورد) على بعد مائتي متر من مكاننا.... حنا نركض وراءهما حتى دنونا

منهما... ثم تبعناهما إلى شارع (ريجنت) ووقفنا بعيدا عنهما.

هنا صاح (هولمز) في سرور:

«ها هو ذا رجلنا!»

قالها وهو يشير بعصاه إلى عربة مقفلة تقف بعيدا عن الرجلين.. وبداخلها رجل لم أتبين وجهه... وفي اللحظة التالية أخرج الراكب رأسه فرأيت وجها ذا لحية كثة وعينين لامعتين... فما إن رآنا حتى هتف يقول للسائق شيئا... عندها اندفعت العربة مسرعة نحو نهاية شارع (ريجنت)..

كان قد ابتعد عنا فلم يعد سهلا أن نلحق به.. ولم نجد عربات أجرة حولنا..

قال (هولمز):

«هذا هو من يتتبع سير (هنري) منذ جاء إلى (لندن) وإلا فكيف عرفوا أنه سيقيم في فندق (نورث مبرلند)؟»

«لكنه بذلك يغدو تحت رحمة السائق.. ومن المؤسف أنني لم ألتقط رقم العربة...»

«كلا يا عزيزي... إن شيئا كذا لا يفوتني... الرقم هو ٢٧٠٤»

«لقد رأيت لحيته»

«من الواضح أنها مستعارة... وهي كافية لتغيير ملامح الوجه تماما».

-٤-

اتجهنا بعد الظهر إلى فندق (نورث مبرلند) حسب الموعد.

وصعدنا في الدرج فإذا بنا نلقي سير (هنري باسكرفيل) كان يمسك في يده بفردة حذاء قديمة متسخة... ويصيح حانقا وقد احمر وجهه:

«كذا! هم يحسبونني أحمق لكني سأريهم أنني مر الطعم.. لو لم يعد الحذاء المفقود فلسوف يندمون... لقد بالغوا في مزاحهم يا مستر (هولمز)...»

«هل تعني أن حذاءك لم يرجع؟»

«نعم... بل وسرقوا (فردة) من حذاء آخر.. لم يتركوا لي من أحذيتي الثلاث سوى هذا الذي أرتديه!»

وجاء خادم ذو لكنة ألمانية يقول في حرج:

«سيدي... ليس لحذائك أثر في الفندق كله»

«حسن.. ما لم يظهر الحذاء قبل الغروب ستكون لي كلمتان مع المدير»

«عذرا سيدي... سنجد الحذاء حتما»

«سترون أنكم لن تسرقوا مني شيئا آخر»

واجتمعنا على طعام الغداء... فلم يتلفظ أحدنا بشيء عن قضية كلب (باسكرفيل) حتى جلسنا في قاعة الجلوس... فأعلن سير (هنري):

«سأذهب للإقامة في قصر (باسكرفيل) في آخر الأسبوع»

قال (هولمز):

«ربما كان قرارا صائبا... فالحقيقة هي أن هناك من يتعقبك في (لندن) وهي مدينة كبيرة يسهل أن تؤذى فيها دون أن نستطيع حمايتك... هل تتصور مثلا أن رجلا ملتحيا كان يقفو أثرك اليوم؟»

هتف د. (مورتيمر):

«ولكن... (باريمور) خادم سير (تشارلز) ملتح»

«هل هو في القصر الآن؟»

«بالتأكيد»

تناول (هولمز) ورقة تلغراف وكتب عليها نص برقية «هل أعددتم كل شيء لوصول سير (هنري)؟»

وجعل المرسل إليه مستر (باريمور) في قصر (باسكرفيل) ثم كتب رد ببرقية أخرى نصها:

(السيد مدير مكتب تلغراف (جريمبن) المرجو في حالة عدم وجود مستر (باريمور) لتسلم برقيته باليد أن تبرقوا لنا باسم سير (هنري باسكرفيل) فندق (نورث مبرلند).

وقال:

«هكذا نعرف قبل المساء ما إذا كان (باريمور) في القصر أم لا»

ثم إنه سأل د. (مورتيمر):

«قل لي يا دكتور... لابد أن (باريمور) وامرأته ينعمان بحرية وسعة عيش في قصر (باسكرفيل) الآن»

«طبعا»

«وهل خصهما سير (تشارلز) بشيء من ميراثه؟»

«نعم... خمسمائة جنيه لكل منهما»

«وطبعا كانا يعلمان ذلك مسبقا... لعمرى إنها أخبار طيبة... سؤال آخر يا دكتور، وأرجو أن تغفر لي ما فيه من وقاحة:

لو أن حادثا أصاب سير (هنري) فمن يرث هذه الثروة الطائلة في (باسكرفيل)؟»

«لا يوجد ورثة قريبون... لهذا تئول الثروة إلى قريب بعيد اسمه (جيمس دزموند) ويعمل واعظا في كنيسة (وستمور لاند)...»

«وهل قابلت هذا المستر (دزموند)؟»

«نعم... وهو رجل صالح مهذب... زارنا في القصر ذات مرة»

سأل (هولمز) سير (هنري):

«وهل قمت أنت بكتابة وصيتك؟»

«لا... لم أجد وقتا لذلك... لكني أرى أن يتم توريث المال والعقارات معا ليتمكن الوريث من الحفاظ على مجد آل (باسكرفيل)...»

قال (هولمز):

«حسن يا سير (هنري) يمكنك الذهاب إلى قصر أجدادك.. لكني أرى ألا تذهب إليه وحدك.. إن د. (موتيمر) معك... لكن بيته بعيداً

عن القصر ولديه عمله وعيادته... لذا أرى أن تصحب رجلا يكون معك في كل لحظة»

«ومن تراه يصلح؟»

«إن د. (واطسون) خير من يقوم بهذا العمل!»

قالها وهو يضع يده على كتفي... فشعرت بدهشة غامرة، ولم أدر ما أقول بينما سير (هنري) يصافحني في حرارة ويقول:

«هذا كرم منك يا د. (واطسون) ولن أنسى صنيعك ما حييت»

لم أجد ما أقول ردا على هذه المجاملات فغمغمت:

«حسن... سأذهب بكل رضا»

«أراك في المحطة يوم السبت في الحادية عشرة والنصف»

وركبت العربة جوار (هولمز) عائدين إلى دارنا في شارع (بيكر).

قضى النهار كله وأكثر المساء يدخن غليونه بفظاعة، ويفكر صامتا... وفي أول المساء عرفنا أن (باريمور) الخادم ما زال في قصر (باسكرفيل).

دق جرس الباب فذهبت لأفتحه.

رأيت رجلا فظ المظهر لم أحتج لجهد كي أعرف أنه حوذي المركبة التي أخذ (هولمز) رقمها، والتي كان الملتحي الغامض يركبها.

قال الرجل.

«لقد أخبروني في المخفر أنك تبحث عن حوذي المركبة رقم ٢٧٩٠٤.. إن لي في القيادة سبع سنوات ولم أر شكوى واحدة في حقي»

قال (هولمز):

«ليس في الأمر شكوى يا رجلي الطيب.. بل سأعطيك جنيها لو أجبت سؤالي» بدا الرضا على الرجل... وسأل:

«ماذا تريد يا سيدي؟»

«أريد معرفة كل شيء عن الرجل الذي كان يراقب هذا المنزل صباح اليوم، ثم راح يتتبع رجلين في شارع (ريجنت)، ثم أمرك بالابتعاد»

بدا الارتباك على الحوذي... وقال:

أنت تعرف هذا يا سيدي... فالرجل من الشرطة السرية، وقد طلب مني ألا أنبس ببنت شفة.. وقال إن اسمه (شيرلوك هولمز)!»

فوجئ (هولمز) بالإجابة، فانفجر يضحك... وقال:

«يا له من رجل يا (واطسون)! الحق أنه سريع البديهة يفكر بذكاء.. وقد تفوق عليَّ في هذا... وأين قابلته؟»

قال الحوذي:

«في ميدان (ترافلجار)... وقد نقدني جنيهين مقابل أن أطيعه طاعة عمياء طيلى اليوم... وكان يراقب رجلين ذهبا من فندق (نورث بمرلند) إلى شارع (بيكر) ثم غادراه إلى شارع (ريجنت). وفجأة أغلق الرجل نافذة العربة وأمرني أن أنطلق بأقصى سرعة إلى محطة (ووتور لو) وهناك نقدني أجري وقال لي:

ربما يهمك أن تعلم أنك كنت في صحبة (هولمز) ومن هنا عرفت اسمه»

«هل يمكنك أن تصفه؟»

حك الحوذي رأسه مفكرا وقال:

«لا شيء خاصا فيه... في الأربعين... شاحب... متوسط الطول... له لحية كثة»

«حسن... هاك الجنيه... ولك مثله لو جلبت لي معلومات أخرى»

وانصرف الرجل مسرورا... بينما نظر لي (هولمز) في خيبة أمل وأسف.. وقال:

«خيط آخر لم يعد مهما يا (واطسون) لقد خسرنا معركة (لندن) لكني أتمنى لك الفوز في معركة (ديفون شاير)!».

-٥-

بينما نحن في طريقنا إلى المحطة؛ قال (هولمز):

«ستكتب لي كل الحقائق بالتفصيل أي (واطسون)، وتترك لي مهمة ربطها واستخلاص النتائج.. أريد معرفة علاقة سير (هنري) بجيرانه الجدد.. أريد أخبارا عن وفاة سير (تشارلز) أريد أخبارا عن الجيران»

سألته:

«هل ترى أن يبدأ سير (هنري) بطرد الخادم وزوجته؟»

«لا... فالظلم سيكون فادحا في حالة براءتهما... ولعل طردهما يجعلهما يعجلان بتنفيذ مخطط شرير ما... أريد منك أن تراقب صاحبي المزرعتين... أن تراقب د. (مورتيمر) وإن كنت أعرف أنه برىء... هناك عالم تاريخ طبيعي يعيش مع أخته، واسمه (ستيبلتون)... وهناك مستر (فرانكلاند) صاحب قصر (لافتر)..

يجب أن تدرس أمر كل هؤلاء يا عزيزي... وليكن مسلسلك جاهزا في حالة الخطر... وكن حذرا»

لحقت بعربة السير (هنري) ود. (مورتيمر) بالدرجة الأولى... وأخرجت رأسي من النافذة أودع (هولمز) الذي وقف على المحطة يرمق القطار صامتا..

راح القطار يقطع طريقه بين المزارع الخضراء والمروج الغناء، ونمت صداقة لا بأس بها بيني وبين صديقي في السفر.

ومن بعيد لاحت غابة عند سفح جبل... فهتف د. (مورتيمر).. «إنها الفلاة»

وتوقف القطار في محطة صغيرة.. وسرعان ما راح الحمالون ينقلون الحقائب إلى عربة يجرها حصانان.

كان الجو رحبا بسيطا لكني لاحظت عددا أكثر من اللازم من الجند، الذين يحملون أسلحتهم ويتأملون الناس في اهتمام وشك...

بينما نحن نشق دربنا بالعربة نحو قصر (باسكرفيل)، قال السائق الذي عرفت أن اسمه (بيركنز):

«إن مسجونا قد فر من سجن (برنستون) منذ أيام ثلاثة... لهذا تراقب الشرطة مخارج المقاطعة، لكن دون توفيق»

كانت العربة ماضية وسط الحقول والمراعي التي لا ترى نهاية لها... ومن بعيد ترى الهضاب المكسوة بالعشب.

تساءل (مورتيمر):

«هو السجين الهارب؟»

«إنه (سلدن)... سفاح (نوتنج هول)..»

تذكرت الاسم... لقد كانت جريمة شنعاء بلغ من هولها أن المحكمة اعتبرت القاتل مخبولا ولم تحكم بإعدامه.

ومن بعيد لاح قصر (باسكرفيل) المبني من الحجر... كان رهيبا مهيبا يقف وسط الأشجار كلغز قديم.

ودخلت العربة طريقا بين صفين من الأشجار ورحنا ندنو من القصر استقبلنا رجل فارع الطول... تقدم منا ورحب بسير (هنري)..

«مرحبا يا سير (هنري) إن قصر (باسكرفيل) يرحب بك»

وكانت معه امرأة... فعرفت أنه الخادم (باريمور) وزوجته.

وانسحب د. (مورتيمر) لتقله عربة سير (هنري) إلى داره.. بينما أدخلنا الخادم إلى بهو كبير به موقد مشتعل... ورحت أتأمل (باريمور) فوجدته رجلا فارع الطول ذا لحية سوداء كثة... وسيما إلى حد ما قال لسير (هنري):

«يسرنا يا سيدي أن نبقى معك حتى تعد للقصر ما يلزمه من خدم... بعد هذا نحن مستعدان للرحيل.. فالقصر كان في استطاعتنا أيام سير (تشارلز) لأنه لم يكن يزور ولا يزار... أما مع التغيرات التي تزمع سيادتكم عملها»

قال سير (هنري):

«لكن أسرتنا تتعامل مع أسرتك منذ دهر ولن أبدأ حياتي في القصر بأن أغير هذا»

بدا التأثر على الخادم وقال:

«هذا يؤثر فيَّ يا سيدي... لكني أحمل- وزوجتي- ذكريات كثيرة لهذا القصر توشك أن تكون أليمة بعد رحيل سير (تشارلز) وأعتقد أننا لن نجد راحة في الحياة هنا بعد ذلك»

كانت حجرتي جوار حجرة سير (هنري)، وكلاهما تطلان على رواق طويل يمتد من شرفة في نهاية بهو القصر.

ويبدو أن الحجرة قد تم تجديدها حديثا لأن ورق الحائط كان زاهي اللون، وكان أثاثها حديث الطراز.

وجلسنا نلتهم العشاء صامتين، ثم دخلنا إلى قاعة الجلوس.

قال سير (هنري):

«إنه مكان كئيب والحق يقال... يخيل إليَّ أنه معاد لي بشكل ما.. وإنني لأفهم سر تدهور الحالة النفسية لعمي»

جاء موعد النوم.

دخلت غرفتي ورقدت في الفراش، لكن النوم جفا عيني برغم إرهاق السفر... كان السكون تاما ما خلا صوت دقات ساعة حائط.

فجأة سمعت في الظلام صوت امرأة تئن! امرأة تبكي... وواضح أن الصوت آت من داخل القصر..

مكث صوت البكاء نصف ساعة ثم انتهى... وعاد السكون إلا من صوت دقات الساعة الرتيب.

على مائدة الإفطار عرفت أن السير (هنري) سمع الصوت ذاته ليلا، لكنه كان شبه غاف فلم يحاول تبين كنهه.

وسألنا (باريمور) عن هذا الصوت فامتقع وجهه قليلا... وقال:

«توجد امرأتان في القصر إحداهما زوجتي.. والأخرى في الجناح البعيد... وأنا أعرف أن صوت البكاء لم يصدر عن زوجتي»

كان كاذبا... عرفت أنه كاذب حين دخلت امرأته ولمحت عينيها المحمرتين وجفنيها المنتفخين... لماذا كذب؟ لماذا بكت زوجته؟

كان عليَّ أن أتيقن من أنه لم يكن في (لندن)... لهذا ذهبت إلى مكتب تلغراف (جريمبن) وسألت عمن تسلم برقية (باريمور) هل هو (باريمور) نفسه؟ لكن الصبي الذي سلم البرقية قال:

«كان مستر (باريمور) مشغولا... لذا قمت بتسليم البرقية لامرأته فأنا أعرفها»

عدت من المكتب شاعرا بالحيرة.

إذن وجود (باريمور) في (لندن) أو عدمه أمر يستحيل التيقن منه.

هنا سمعت من يناديني... فنظرت للوراء لأجد رجلا نحيلا يحمل

شبكة لصيد الفراش، ومعه علبة للعينات النباتية... قال لي:

«أعذرني على تطفلي يا د. (واطسون)... فنحن على طبيعتنا هاهنا... إنني من الجيران وأدعى (ستبلتون)...» «هذا واضح... فأستاذ لتاريخ الطبيعي يسهل تمييزه... لكن كيف عرفتني؟»

«د. (مورتيمر) أشار إليك من بعيد وذكر اسمك... هل سيشرفنا مستر (هولمز) بزيارة المقاطعة؟»

كان سؤالا غريبا لم أتوقعه... لكني تمالكت نفسي وقلت:

«إنه مشغول حاليا... ولا يمكنه ترك (لندن)...»

«أنا مستعد لتقديم العون في أية مشكلة تضايقك أو تحقيقات تريدها» وكنا قد دنونا من منزله... فقال:

«تفضل بالدخول... سأقدمك لأختي»

كان من واجبي أن أكون قريبا من سير (هنري) لكن الرجل مشغول الآن في دراسة الأوراق... ثم إن من واجبي كذلك أن أتعرف الجيران... لهذا قبلت الدعوة... وسرت مع (ستبلتون) قاصدين بيته..

قال وهو يرمق الفلاة حوله:

«إن الفلاة هنا حافلة بالأسرار العظمى.. لقد مضى عليَّ عامان هاهنا أدرسها.. ولا يعرفها حق المعرفة سوى قليلين»

«هل هي صعبة إلى هذا الحد؟»

«جـدا... انظر إلى هذه الهضبة الشمالية... هل ترى شيئا غير عادي؟»

«تبدو لي مكانا صالحا للنزهة فوق جواد» ضحك وقال:

«هل ترى البقاع الأكثر خضرة وسطها؟ هذه هي مستنقعات (جريمبن) العظمى حيث يدفع الجاهلون ثمن جهلهم.. خطة واحدة تكون الأخيرة... إنها تبتلع من يدنو منها، وهي الآن أخطر بعد أمطار الخريف.. لكني أعرف ممرين يمكن المشي فيهما»

«وماذا يدعوك لعبورها؟»

«إنها تقودني إلى جزر تعج بالنباتات النادرة والفراشات الثمينة... ولا أنصح أحدا بمحاولة العبور هذه»

وفجأة دوى في المكان صوت حشرجة بدأت واهنة... ثم تعالت حتى ملأت الأرجاء.. وأخيرا غابت في حزن عميق..

صحت في دهشة:

«ما هذا بحق السماء؟»

قال في غموض:

«إن الفلاة لملأى بالأسرار.. يقول الفلاحون إن هذا صوت كلب آل (باسكرفيل) ينادي فريسته»

ثم أردف وهو يرمق المستنقعات:

«ربما هو صياح طير جارح»

ومرت جوارنا فراشة جميلة.. هنا فارقني (ستبلتون) وراح يركض وراءها في خفة ورشاقة ورأيته يوغل داخل المستنقعات حتى كاد قلبي يقف ذعرا... لقد نسى كل شيء عني.

هنا سمعت من يمشي خلفي فنظرت للوراء.. كانت امرأة تدنو مني.. وكانت حسناء رشيقة سوداء العين، أدركت أنها شقيقة (ستبلتون)

رفعت قبعتي محييا... لكنها لم ترد التحية... فقط قالت كلمة واحدة

«عد أدراجك! عد!»

وكانت تضرب الأرض بقدمها في نفاد صبر.. فسألتها:

«أعود؟ لماذا؟»

«لن أوضح.. لكني أنصحك بالعودة إلى (لندن)..»

«ولكني جئت من فوري و..»

صاحت في حنق:

«ألا تفهم أن هذا لمصلحتك؟ عد إلى (لندن) في أول قطار... صه! إن أخي قادم... أرجو أن تقتطف لي هذه الزهرة البرية.. ما أجملها!»

هنا جاء (ستبلتون) يلهث.. وبدا مندهشا لرؤيتنا معا.. وقال:

«كانت فراشة نادرة لكني لم أظفر بها»

وأدركت أنه غير سعيد لهذا اللقاء.. وعيناه اللامعتان تنتقلان بيني وبين شقيقته.. ثم قال:

«قد تعارفتما كما أظن؟»

قالت الفتاة:

«إنه سير (هنري باسكرفيل) على ما أحسب؟»

قلت:

«كلا.. أنا د. (واطسون).. صديقه»

دعانا (ستبلتون) إلى الدخول.. ولاحظت أن الفتاة تضايقت لهذا الخلط.

كان المنزل ريفيا عتيق الطراز، لكن تنسيق الفتاة كان واضحا.. ورحت أرمق الفلاة الموحشة من النافذة، فقال (ستبلتون) كأنما قرأ أفكاري:

«مكان غريب لكننا نحبه... أليس كذلك يا (بيريل)؟»

ردت الفتاة بلهجة غير صادقة تماما:

«بلى»

وحكى لي (ستبلتون) أنه كان مدير مدرسة في شمال إنجلترا.. ثم تفشى فيها الوباء واضطر إلى إغلاقها.. وجاء مع أخته ليستقر هاهنا ويدرس النبات والحشرات البرية.

ثم دعاني إلى الصعود معه للطابق العلوي كي أرى مجموعات.. لكني اعتذرت فلم يكن لدي وقت كاف..

وعدت عبر الفلاة وفي ذهني أسئلة عدة، عما قالته الفتاة، وعن

صوت العواء، وغير ذلك..

هنا فوجئت بالآنسة (ستبلتون) جالسة إلى جانب الطريق، وكانت تبتسم في رقة وقالت:

«لقد ركضت كي ألحق بك، وسلكت طريقا مختصرا.. إنني آسفة على تلك الهفوة، وأرجو أن تنسى ما قلته لك نسيانا تاما»

« لكني أبغى معرفة سبب نصحك ل(سير هنري) بالعودة إلى لندن»

«إن للنساء تصرفات غريبة قد لا يكون لها مبرر واضح.. لكن هل تعرف أسطورة كلب (باسكرفيل)؟»

«إن هذا لهراء»

«أما أنا فأصدق كل حرف منها.. وأرجو أن تنصح سير (هنري) بتحاشي هذه المقاطعة الخطرة»

«لن يغادر المكان ما لم يجد ما بين يديه حقائق.. ثم لماذا تكرهين أن يسمع أخوك رأيك؟»

«إن (ستبلتون) حريص على أن يقيم وريث (باسكرفيل) في قصره،

فهذا يفيد الفلاحين هاهنا جم الفائدة.. ولسوف يحنقه أن يعلم أنني طلبت من سير (هنري) مغادرة المكان.. والآن وداعا»

ووثبت بين الصخور حتى توارت عن عيني وعدت إلى قصر (باسكرفيل) قفا متوجسا.

عزيزي (هولمز):

«أطلعتك في خطاباتي السابقة على كل الأحداث التي طرأت منذ قدومنا إلى (باسكرفيل) لا أثر للسجين الهارب ويرجح أنه غادر المقاطعة.

تم التعارف بين (ستبلتون) وسير (هنري)، واصطبحنا هذا الأول كي يرينا الفلاة.. ثم دعانا إلى منزله لتناول الغداء..

وقد لاحظت ميلا واضحا من سير (هنري) نحو الفتاة.. وامتعاضا واضحا من (ستبلتون) تجاه هذا الميل.. ولاحظت أنه يحاول ألا يتيح للاثنين فرصة الانفراد أبدا.. واضح أنه متعلق بأخته ولا يرغب في أن تتزوج فيغدو وحيدا.

تعرفت كذلك مستر (فرانكلاند) مالك قصر (لافـتر) وهو

رجل شيخ ذو وجه أحمر وشعر أشيب.. عاكف على دراسة الفلك بالتلسكوب.. وهو حاليا يمسح الفلاة به بحثا عن السجين الهارب.

الجديد في الأمر أن شكى يتزايد بصدد (باريمور) الخادم.

أمس صحوت في الثانية صباحا لأسمع صوت قدمين تمشيان خارج الغرفة.. نهضت وفتحت الباب فرأيت (باريمور) يمشي في الرواق حاملا شمعة.. وقد قررت أن أتبعه خلسة.

رأيته يدخل غرفة خالية في الجناح الآخر.. ووجدته يقف خلف النافذة يحرك الشمعة باستمرار كان يرمق المروج.

ظل بعض الوقت في هذا العمل، ثم أطفأ الشمعة وعاد.. عندها هرعت إلى حجرتي واندسست في الفراش.. وسرعان ما نمت..

لا أستطيع استنتاج شيء من كل هذا، لكنك طلبت مني أن أحكي كل صغيرة وكبيرة في هذا المنزل..

وقد اتفقت مع سير (هنري) على أسلوب نكشف به سر هذا البيت.. لكن موضع هذا في خطاب آخر..

عزيزي (هولمز):

لقد اتفق رأيي وسير (هنري) على أن نتبع (باريمور) معا في رحلته الليلية.

لقد بدأ سير (هنري) في إصلاح القصر، مستكملا ما بدأه عنه سير (تشارلز) وإن كان الأمر يتجاوز التجديد إلى ما يبدو لي أنه إعداد لقدوم عروس.. وأنا أعتقد أن هذه العروس هي مس (ستبلتون)..

منذ يومين استعد سير (هنري) للخروج، واستعددت كي أتبعه كدأبي.. لكنه بدا غير راغب في ذلك.. وكان سهلا أن أستنتج أنه ذاهب إلى لقاء مس (ستبلتون) قررت أن أتركه يخرج ثم أتبعه لأطمئن على سلامته..

وعلى بعد ربع ميل رأيتهما.. كانا يمشيان جنبا إلى جنب ويتحدثان.. هنا أجفلا ونظرا إلى ما بين الصخور ويعدو نحوهما ملوحا بقبضته.

ورأيت مشادة بين الرجلين، بدا فيها سير (هنري) يحاول التفسير.. و(ستبلتون) حانق منفعل.. ثم جذب أخته من ذراعها كي تمضي معه إلى البيت، ووقف سير (هنري) وحيدا كاسف البال..

ألحق أن موقف (ستبلتون) غريب.. فقد علمت أن سير (هنري)

سأله يد أخته.. لكنه لم يقبل وأبى في حنق.

إن سير (هنري) رجل ثري وسيم حسن الخلق.. وهو زوج صالح للفتاة.. ثم إن الفتاة تتعامل باستسلام ورخاوة تجاه مصيرها الخاص.. أليس هذا غريبا؟

وفي المساء تحسن الموقف نوعا..

لقد جاء (ستبلتون) إلى القصر، فاعتذر لسير (هنري) عن خشونته.. وقال إن حبه لأخته جعله يشعر بأن كل عريس إنما يحاول سرقتها منه.. وطلب من سير (هنري) ألا يتضايق، فهو (ستبلتون)

موافق على الزيجة.. لكنه يسأل سير (هنري) ألا يحاول مغازلة الفتاة لمدة ثلاثة أشهر.. على أن تكون هذه الأشهر فرصة لتوطيد التعارف بينهم.. وزالت الضغائن بعد هذا الموقف..

أما عن صوت البكاء الليلي فقد كشفنا عنه الستار في المساء كنت وسير (هنري) ننتظر حتى يبدأ (باريمور) رحلته الليلية.. ثم دقت الساعة الثانية بعد منتصف الليل.. فسمعنا صوت خطواته في البهو..

خلعنا أحذيتنا وفتحنا الباب، وهرعنا نلحق ب(باريمور).

كان في الحجرة إياها أمام النافذة والشمعة في يده.

هنا دنا منه سير (هنري) فما إن رآه الخادم حتى ارتجف هلعا، وامتقع وجهه، وتراجع عن النافذة.. فسأله سير (هنري):

«ماذا تعمل؟»

قال مرتجفا:

«إن هي إلا جولتي الليلية للاطمئنان على النوافذ يا سيدي!»

في صرامة سأله سير (هنري):

«لا تكذب.. ما سبب وقوفك هنا يا (باريمور)؟»

ارتجف الرجل أكثر.. وفي تعاسة قال:

«تسألني يا سيدي أرجوك... فهذا السر لا يخصني»

وهنا دنوت من النافذة ورحت أحرك الشمعة فقد بدا لي الأمر كأن (باريمور) يعطي إشارات لشخص ما في الفلاة.

رحت أرمق الظلام.. عندها رأيت ضوءا شاحبا يتألق من بعيد.

صحت في حماس:

«هذا هو ما نبحث عنه» تهدج صوت (باريمور) قائلا:

«أقسم لك يا سيدي إن هذا لا شيء»

قال سير (هنري):

«إن الضوء يتحرك مع حركة ضوئنا.. إنها إشارات يا (باريمور).. وإنني لأتساءل عن المؤامرة التي تدبرها.. وشريكك في هذا»

«قلت إنه شأني يا سيدي»

«إذن أنت مطرود!»

«أمرك يا سيدي!»

هنا سمعنا صوتا نسائيا يصرخ:

«لا يا سيدي! نحن لا ندبر شيئا ضدك صدقني أنا من دفع (باريمور) إلى هذا.. ولا ذنب له في شيء»

كانت هذه زوجة (باريمور) التي دخلت علينا وهي في ذروة الشحوب.

سألها سير (هنري):

«إذن ما معنى هذه اللعبة؟»

قالت:

«إنه أخي الذي يموت جوعا في الفلاة.. لهذا نعد له الطعام، ونشير له بالشمعة كي ينتظرنا.. ثم أتجه أنا له بالطعام حيث يتألف ضوؤه هناك»

«إذن أخوك هو»

«هو (سلدن) السجين الهارب»

نظرنا لها في ذهول غير مصدقين علاقة تربطها بهذا السفاح.. لكنها قالت:

«كان هو وصمة عار أسرتنا، وقد هرب من السجن فجاءني هاهنا يطلب العون، ولم أستطع أن أرفض ذلك.. فهو أخي ولن أتركه يقضي جوعا.. لهذا اتفقنا على هذه الإشارات المتبادلة كل ليلة»

قال سير (هنري):

«حسن.. يمكنكما الذهاب للنوم.. وسوف نتكلم عن هذا غدا»

وانصرفنا فراح يرمق الضوء البعيد مفكرا.. ثم قال لي:

«ما رأيك في القبض عليه يا (واطسون)؟»

«فكرة لا بأس بها.. فهذا المجرم خطر علينا جميعا.. وقد يأتي يوم يهاجم فيه (ستابلتون) وأخته.. أرى أن الحكمة تقضي أن نقبض عليه»

«مرحى.. إذن هات مسدسك سريعا ولنسرع»

وخرجنا إلى الفلاة الباردة، والقمر يطل علينا من وراء السحب.. ثم بدأ المطر ينهمر مدرارا لكننا كنا نرى الضوء بوضوح تام..

فجأة دوى ذلك الصراخ الغريب القادم من مستنقعات (جريمبن) بدأ خافتة عميقة ثم صارت عواء مخيفا عاليا.. ثم عادت أنينا كالحشرجة وصداها يدوى في الفضاء موحشا عميقا ينذر بالويل..

كان السير (هنري) يسمعه للمرة الأولى.. أمسك بذراعي مذعورا وهتف:

«رباه! ما هذا يا (واطسون)؟»

«إنه صوت مألوف هاهنا»

«لكنه صوت عواء كلب هائل!»

كان مذعورا، وانتقل ذعره إليَّ، وبرد الدم في عروقي.

سألني:

«ماذا يقولون عن هذا الصوت يا (واطسون)؟»

لم أدر كيف أتملص منه.. أخيرا قلت بعد إلحاح:

«يقولون إنه عواء كلب آل (باسكرفيل)..»

تنهد في عمق.. وقال هامسا:

«نعم.. هو عـواء كلب.. وواضـح أنه آت من مستنقعات (جريمبن)..»

«هل نعود أدراجنا؟»

«لا.. لقد جئنا نبحث عن السجين.. ولسوف نفعل حتى ولو ركضت خلفنا كلاب جهنم ذاتها»

ورحنا نتقدم في الظلام وسط الفلاة.. قاصدين الضوء الشاحب الذي رأيناه في النافذة.. وأخيرا رأينا مصدره.. كانت شمعة مثبتة في فجوة صخرية حتى لا تطفئها الرياح.

تهامسنا واتفقنا على الاختباء خلف صخرة.

عندها رأينا وجها دميما في عينيه شر وإجرام، يطل من الفتحة في حذر.. وثبت صارخا أدعوه للتوقف.. لكنه أطلق سبة وقذفنا

بصخرة.. ثم راح يركض مبتعدا بأقصى سرعة.

كان خفيف الحركة، لكني لم أجرؤ على رميه بالرصاص.. فقد كان أعزل لا يحمل سلاحا، والمسدس كان لحمايتي لا لقتله..

كان سريعا، لهذا جلسنا فوق الصخور نلهث.. هنا حدث شيء غريب.. لقد رفعت رأسي لأعلى فرأيت في ضوء القمر خيال رجل فارع الطول نحيل يقف فوق هضبة.

كان مطرقا برأسه ويداه على صدره معقودتين كأنما يفكر..

استدرت أهيب بسير (هنري) أن ينظر إلى ما أراه، لكن الرجل تلاشى في الظلام..

وعدنا أدراجنا إلى قصر (باسكرفيل) صفر اليدين.. لكننا على الأقل عرفنا سر (باريمور) وزوجته.. ويمكننا أن نضعهما كما ترى خارج دائرة الشبهات..

مقتطفات من مذكرات د. (واطسون):

١٦ أكتوبر:

الضباب كثيف والمطر ينهمر مدرارا.. وشعور الخطر يغمرنا..

من هو الغريب الذي رأيته أمس فوق التل؟

أنا أعرف أنه ليس (ستبلتون) ولا (فرانكلاند) ولا (باريمور).

لقد غدا سير (هنري) عصبي المزاج مشتتا.. إنه لم ينس صوت العواء الذي سمعه في الفلاة.. وكان يدرك أن هذا الصوت من أجله هو.. وفي الصباح جاء (باريمور) طالبا الحديث مع سير (هنري).

قال له:

«لقد علمت يا سيدي أنكما كنتما تطاردان (سلدن) لماذا لا تتركان هذا التعس لما هو فيه من بؤس؟»

قال سير (هنري):

«إنه سفاح له وجه سفاح.. وهو خطر داهم على المقاطعة ما ظل حرا طليقا.. كم من أبرياء يستطيع هذا القاتل أن يؤذيهم»

«أقسم بشرفي يا سيدي إنه لن يؤذي أحدا.. لقد أعددنا عدتنا كي نرحله إلى أمريكا الجنوبية، وبعدها لن يسمع عنه مخلوق.. أما إبلاغ رجال الشرطة عنه فلن يؤدي إلا توريطي أنا وزوجتي»

«وماذا إذا اعتدى على أحد قبل رحيله؟»

«لن يفعل يا سيدي.. لأن أية جريمة ستجعل الشرطة تعلم مكانه»

قال سير (هنري):

«حسن.. يا (باريمور) لن نبلغ الشرطة» بدا الرضا على الرجل.. لكنه لم ينصرف، وبدا أنه يريد قول شيء ما.. وبعد هنيهة قال مترددا:

«إنك عطوف يا سيدي.. لهذا أبغى مساعدتك في قضية وفاة عمك سير (تشارلز) ثمة نقطة لم أذكرها لمخلوق، ولم أعرفها إلا بعد انتهاء التحقيق في الوفاة»

«هل تعرف كيف مات؟»

«لا.. لكني أعرف سبب انتظاره عند باب الفلاة ليلة وفاته.. كان ينتظر امرأة»

شعرنا بدهشة لهذا التصريح. وسألناه:

«ما اسمها؟»

«اسمها (ل. ل) هذا كل ما أعرفه»

«وكيف عرفت هذا؟»

«لقد تلقى سير (تشارلز) رسالة في صباح ذلك اليوم.. رسالة

مرسلة من (كومب تراس).ز وقد نسيت كل شيء عنها لولا أن امرأتي كانت- منذ أسابيع- تنظف مكتب السير (تشارلز) ووجدت بقايا رسالة في المدفأة.. رسالة محترقة لم يبق منها سوى نهايتها.. وكانت تقول:

(أسألك أن تحرق هذه الرسالة.. وأن تنتظرني عند باب الفلاة في العاشرة..

التوقيع

«ل. ل»

«هل الرسالة معك؟»

«لا.. لقد تفتتت بين أنامل زوجتي»

«ولماذا لم تخبرنا؟»

«كنا قد انشغلنا بشأن (سلدن) ثم إننا شعرنا بأن إذاعة هذه الرسالة قد يؤذي سمعة الفقيد فالرسالة تتكلم عن امرأة.. وقد يسبب هذا شوشرة»

«حسن.. يا (باريمور) يمكنك الانصراف»

وما إن انصرف (باريمور) حتى سألني سير (هنري) عن رأيي

فقلت:

«الضباب يزداد كثافة»

«إن البحث عن هذه إل(ل. ل) لن يكون عسيرا فيما أرى.. وهي التي ستقودنا إلى الحقيقة»

«أرى أن نخبر (هولمز) بكل شيء»

وعدت إلى غرفتي، فكتبت ل(هولمز) تقريرا مفصلا.. كنت أعلم أنه مشغول، ومن الواضح أنه نسى موضوع كلب (آل باسكرفيل) هذا.. لكني كنت آمل أن أثير حماسه بما في الخطاب من أنباء جد مهمة.

١٧ أكتوبر:

المطر يهطل مدرارا.. لا أتمالك من التفكير في البائس الذي يقبع الآن في الفلاة بلا سقف يحميه إن هذا السجين يكفر عن خطاياه الآن

جاء المساء فارتديت معطفي الواقي من الماء ومشيت في الفلاة أصغى لصوت الرياح وأشعر بالمطر يغمر وجهي.

وصعدت إلى الهضبة التي رأيت عندها أمس ذلك الرجل الغامض.. فلم أر من فوقها سوى قصر (باسكرفيل)، والأكواخ الحجرية المتناثرة

التي كان يعيش فيها قوم ما قبل التاريخ منذ ملايين السنين.

قررت العودة إلى القصر، فقابلت د. (مورتيمر) يقود عربته بنفسه فما إن رآني حتى أصر على أن أركب معه في طريق العودة.. وكان قلقا على كلبه الصغير الذي خرج إلى الفلاة واختفى.. هنا استنتجت أن الكلب قد غرق في مستنقعات (جريمبن) الرهيبة.

سألته والعربة ماضية بنا:

«هل تعرف كل سكان المقاطعة يا د. (مورتيمر)؟»

«كلهم»

«هل من امرأة تدعى (ل. ل)؟»

فكر لحظة.. ثم قال:

«لا.. إلا إذا كانت من الغجر.. فلست واثقا من ذلك.. ولكن.. هناك (ل. ل) حقا.. هي (لورا ليونز)

وتعيش في (كومب تراس).. إنها ابنة (فرانكلاند)!»

«ابنته؟»

«نعم.. كانت قد تزوجت من فنان بوهيمي هجرها بعد الزواج..

لكن بعدما طردها أبوها نفسه لأنه لم يبارك هذه الزيجة»

«وكيف تعيش؟»

«أبوها يمنحها مرتبا ضئيلا.. لكن سير (تشارلز) و(ستبلتون) وأنا قد تعاونا كي نجد لها عملا تتعيش منه»

حاول أن يعرف أكثر لكني التزمت الصمت، وتملصت منه.

تناول د. (مورتيمر) العشاء معنا في قصر (باسكرفيل) وجلس يلعب الورق مع سير (هنري)، أما أنا فجلست أرشف القهوة وسألت (باريمور):

«هل ما زال أخو زوجتك في الفلاة؟»

كنا بعيدين عن د. (مورتيمر) فلم يعرف ما نتحدث عنه.

قال (باريمور):

«لا أعرف عنه شيئا منذ ثلاثة أيام يا سيدي ربما كان قد رحل»

«هل قابلته؟»

«لا.. لكن الطعام اختفى في اليوم الثاني ربما كان هو أو الرجل الآخر»

«رجل آخر؟!»

نعم.. هناك رجل آخر في الفلاة»

«هل رأيته؟»

لا.. لكن (سلدن) أخبرني بأمره.. وهو متوار مثل (سلدن) تماما»

ثم صمت الرجل باحثا عن كلمات، وقال وهو يشير إلى النافذة:

«إنني لا أحب كل هذا الجو الشيطاني ولسوف أشعر بالرضا لو أن سير (هنري) عاد أدراجه إلى (لندن)..»

«لكن لماذا؟»

«لقد حامت الشكوك حول وفاة سير (تشارلز) ثم بعد هذا تجد أصوات العواء الليلية في المروج لقد صارت تلكم الفلاة مكانا محرما.. ثم ذلك الرجل الكامن في الفلاة ينتظر ماذا؟ كل هذا مريب مخيف»

«هل عرفت من (سلدن) أين يقضي الرجل لياليه؟»

«في الأكواخ القديمة التي بناها القوم الأقدمون»

«وطعامه؟»

«يجلبه له صبي صغير»

وانصرف الخادم.. فاتجهت إلى النافذة أرمق الظلام في الخارج.. السحب تزدحم في السماء منذرة بهطول المطر.. والريح تحرك الأشجار في عنف.

تخيلت الرجل الغريب القابع في كوخه وسط الفلاة في هذا الزمهرير.

إن الرجل للغز.. لكنه سيكون هو نفسه مفتاحا لهذا اللغز.

إن الإجابة تكمن في الكوخ الحجري

على مائدة الإفطار، أخبرت سير (هنري) بما عرفته عن مدام (ليونز)، والخطاب الأخير الذي تلقاه سير (تشارلز) قبل وفاته.. واتفقا على أن أذهب وحدي إلى (كومب تراس) لمعرفة ما يمكن عن هذه السيدة.

أوصلني السائق (بيركنز) إلى هناك.. فنزلت أستعلم عن مقر مدام (ليونز)، وأخيرا وصلت بيتها فأدخلتني الخادمة إلى قاعة استقبال بها سيدة تطبع شيئا على الآلة الكاتبة.. وقد أشرق وجهها حين رأتني وسألتني عما أريد.. فقلت لها:

«لقد أسعدني الحظ بلقاء والدك»

تغيرت معاملتها في الحال إلى الفتور.. وقالت:

«إن أصدقاء أبي ليسوا أصدقائي.. فهو قد تخلى عني.. ولولا معونة سير (تشارلز باسكرفيل) وسواه لتضورت جوعا.. إنه أقسى من أن يكون أبا لي»

«لكنني هنا بخصوص سير (تشارلز) نفسه!» بدا عليها الارتباك، وازدادت عصبية.. فقلت لها:

«أنت تعرفينه بالتأكيد»

«قلت لك إنه صاحب الفضل عليَّ.. وهذا كل شيء»

«هل تبادلتما خطابات؟»

ارتفع صوتها في حدة.. وقالت:

«ما معنى هذا الكلام؟»

«أنا أحاول منع فضيحة سرعان ما تكون على كل لسان.. لذا أرجو تجيبني بصدق:

هل أرسلت له خطابات؟»

شحب وجهها وقالت بعد صمت طويل:

«حسن.. لقد كتبت له خطابا أو اثنين وكانا يحويان شكرا على كل ما قام به من أجلي»

«ألم تطلبي منه أن يقابلك قط؟»

احمر وجهها حنقا وقالت:

«المزيد من الأسئلة الغريبة!»

«هذا حق لكنه مهم بالنسبة لي»

(إذن أنا لم أفعل»

«ولا في يوم الوفاة؟»

شحب وجهها تماما.. واحتبست لفظة (لا) في فمها، فحركت شفتيها بها.

قلت لها:

«سأذكر لك آخر مقطع من الرسالة:

أسألك أن تحرق هذه الرسالة.. وأن تنتظرني عند باب الفلاة في العاشرة. التوقيع:

ل. ل»

قالت وهي تتماسك كي لا تفقد الوعي:

«ألم يعد رجل شهم في هذا العالم؟»

«لا تظلمي الرجل.. فقد أحرق الرسالة لكنها لم تحترق تماما.. هذا يحدث كثيرا»

قالت في غضب واندفاع:

«ليكن.. أنا كتبت الرسالة! لم أقارف خطأ ما.. كنت أبغى عونه، وحسبت أنني سأناله لو قابلته وحدي لقد كان يود يزمع السفر إلى (لندن) وكان عليَّ أن أفاتحه سريعا»

«لماذا الحديقة بالذات؟»

«لأن المرأة المحترمة لا تدخل بيت رجل عزب وحيدة ليلا.. وعلى كل حال نحن لم نلتق قط!»

«أحقا؟»

«نعم.. لقد جد جديد منعني من اللحاق به»

«وما هو؟»

«شأن خاص من شئوني»

قلت وأنا أنهض عازما على الانصراف:

«أنت تضعين نفسك في مشكلة.. ولسوف يجد البوليس حكايتك واهية تماما.. فأنت ضربت لسير (تشارلز) الموعد والمكان اللذين مات فيهما.. ثم زعمت أنك لم تذهبي.. هذا يبدو غريبا»

فكرت المرأة قليلا ثم قالت:

«.. أنت تعرف أنني تزوجت زيجة ندمت كثيرا عليها فيما بعد.. وانفصلت عن هذا الزوج المخبول، لكن القانون كان يخول له أن يعيدني بالقوة إلى بيته.. وكنت أحتاج إلى المال كي أتمكن من تحرير نفسي من قيد هذا الزواج والظفر بالطلاق..

لذا كتبت رسالة إلى سير (تشارلز) أسأله فيها العون..

وأملت في أنه- حين يسمع الكلام مني مباشرة- سيرق ويمنحني ما أريد من مال»

«إذن لماذا لم تذهبي؟»

«لأني وجدت المال في مكان آخر.. ولم أذهب للموعد.. وفي

الصباح علمت بخبر وفاته»

لاحقهما بأسئلتي محاولا استخلاص المزيد، أو إيجاد ثغرة في قصتها فلم أجد.. إن من السهل التأكد من حقيقة أنها لم تأت إلى (باسكرفيل) في تلك الليلة.

ف(كومب تريس) صغيرة والأنباء تنتشر فيها بسرعة.

أعتقد أنها صادقة.. قد تخفى شيئا لكنها صادقة.

عدت إلى القصر وقد عزمت على استكشاف تلك الأكواخ الحجرية التي يعيش الرجل المجهول في أحدها.

كنت راكبا حين مرت العربة أمام منزل (فرانكلاند)..

وكان الرجل واقفا على باب الدار، فما إن رآني حتى صاح يدعوني إلى الشراب..

لم أكن متحمسا للرجل بعدما عرفت بأمر معاملته لابنته.. لكنها كانت دعوة كريمة لم أستطع التنصل منها.

تخلصت من السائق.. ثم دخلت إلى دار (فرانكلاند)

قال لي الرجل في حماسة:

«أعلم أنني قد سبقت رجال الشرطة بخطوات»

«كيف؟»

«لقد وقفت على سر يموتون شوقا كي يعرفوه»

قررت التظاهر باللامبالاة.. فهذا سيجعله يقول كل ما هناك.. وقد كان.

قال لي في حماس متزايد:

«لقد عرفت مكان ذلك السجين الهارب»

«وكيف؟»

«من السهل أن تجد الرجل لو بحثت عن المصدر الذي يحصل منه على الطعام.. وأنا أعرف أن صبيا يحضر له الطعام كل يوم»

«صبي؟»

«نعم.. أراه بال(تلسكوب) كل يوم يتجه للفلاة.. ثم إن.. لكن لحظة.. هل ترى شيئا يتحرك فوق السفح هناك؟»

نظرت إلى حيث أشار.. وخيل إلي أنني أرى جسما يتحرك في ذلك الموضع

قال وهو يصعد في الدرج:

«تعال نره بال(تلسكوب) من فوق سطح الدار»

وصعدت وراءه لأجد جهاز (تلسكوب) يقف على حامل ثلاثي.. ودعاني الرجل أن أنظر من العدسة ففعلت.

كان ما رأيته هو صبي يحمل لفافة.. ويتلفت حوله في حذر بينما هو يتسلق سفح التل.. ثم توارى عن عيني..

قال (فرانكلاند):

«هل ترى منظره المريب؟ من السهل أن نتخيل أية مهمة يقوم بها هذا» غادرت الدار وقد عقدت العزم على بدء بحثي في التل الذي رأيت الصبي عنده.

دنوت من تلك الأكواخ الحجرية القديمة، ومن بينها كوخ ثَمَّ وضع سقف بدائي فوقه بيد إنسان من أيامنا هذه.. فأيقنت أن هذا هو الكوخ الذي يتوارى فيه رجلنا إياه.

كان الصمت يسود المكان.. فرميت عقب لفافة تبغى، وأخرجت المسدس من جيبي.. وتقدمت من المدخل..

كان كل شيء في الكوخ يدل على وجود إنسان.. فهناك بطاطين.. وبقايا نار في وعاء حجري.. وأوان ملأى بالماء.

إن من يعيش هاهنا إنما يعيش منذ زمن بعيد.. في وسط الكوخ قطعة حجر وجدت عليها لفافة، بها رغيف خبز وبعض اللحم.. إنها اللفافة التي كان الصبي يحملها حين رأيته بال(تلسكوب)..

وجوار اللفافة وجدت وريقة كتب عليها بخط ردىء، وبالقلم الرصاص:

(د. واطسون ذهب إلى كومب تراس)!

دق قلبي بعنف.. إذن هذا الرجل الغامض يقتفي أثري.. إن هذه الرسالة كتبها له الصبي كنوع من التقرير..

من هو هذا الرجل؟ وماذا يريد مني؟

رحت أفتش الكوخ بحثا عن مزيد فلم أجد.

فقط عرفت من التفتيش أن الرجل لا يبالي كثيرا برغد الحياة.. ومن الواضح أن ماء المطر المنهمر من السقف لا يضايقه كثيرا.

بدأت الشمس تغرب.. كقرص دموي ينحدر في الأفق، وأشعتها

تلتمع فوق مستنقعات (جريمبن)..

ومن النافذة البدائية كنت أرى قصر (باسكرفيل)..

وبعيدا عنه بيت (ستبلتون) شعرت براحة نفسية لكنها لم تكن تامة لأني كنت أفكر في ذلك الرجل الغامض.. جلست والمسدس في يدي أنتظره..

ثم سمعت صوت خطوات تدنو من الكوخ فتوترت مستعدا للصراع.

توقفت الخطوات هنيهة.. ثم عادت تدنو..

ورأيت ظل الرجل على الباب وسمعت صوته يقول:

«ليلة جميلة يا (واطسون).. لا أدري ما يرغمك على البقاء في هذا الكوخ الكئيب!»

عرفت الصوت على الفور.. فتجمدت في مكاني.

إن رجلا واحدا في العالم يتكلم بهذا الصوت الهادئ الساخر.. وإنني لأشعر أن عبء المسئولية ينزاح عن كاهلي..

«هولمز! (شيرلوك هولمز)!)

قال:

«هلم اخرج لي.. واحذر أن يصيبني مسدسك!»

خرجت من الكوخ فرأيته جالسا فوق صخرة وقد بدا منهكا مرهقا لكنه نظيف الثياب حليق الوجه.

قلت له في طرب:

«لم أسعد برؤية إنسان مثلما حدث الآن»

«ولم تدهش!»

«حقا.. أعترف بهذا»

«ولكن كيف عرفت؟»

«لا يمكن ألا أعرف وأنا أرى عقب لفافة تبغك على الأرض.. لفافة تبغ كتب عليها (برادلي- شارع أوكسفورد) هذا يدل بوضوح على أنك كنت هنا... ثم آثار أقدامك.. ليس عسيرا استنتاج أنك بداخل الكوخ تنتظر ومسدسك معك.. وأنا أيضا ارتكبت أخطاء مماثلة.. فلم ألحظ أن ضوء القمر خلفي تلك الليلة حين رأيتني فوق الهضبة.. ولم ألحظ أن التلسكوب يمسح الفلاة إلا حين التمع عليه وهج الشمس.. لكنني أرى أن شكوكنا تمشي في اتجاه واحد.»

قلت له:

«الحق أنني مسرور لوجودك هنا.. فهذه القضية غامضة تسبب لي توترا مريعا.. لكن قل لي:

لماذا أتيت هاهنا؟ ولماذا لم تقل لي؟»

«يا صديقي أنا لم أخدعك أو أكذب عليك.. كنت أتوقع أن يكون هناك خطر داهم عليك.. لهذا أردت أن أتواجد دانيا وأظل مجهولا بالنسبة لأعدائنا.. وساعدني اختفائي هنا على حرية التنقل.. تلك الحرية التي ما كنت لأنالها لو أقمت في قصر (باسكرفيل)..»

«كان بوسعك أن تخبرني»

«لا.. لأنك كنت ستكشف الأمر.. ما كنت لتحتمل تركي هنا دون ضروريات أو تحت تقلبات الجو.. لقد تكفل الصبي (كارترايت) في كتب البريد بالوفاء بكل مطالبي»

«وتقاريري؟ لم تستفد منها طبعا؟»

«بل كان يحملها لي جميعا ولا يرسلها إلى (لندن) وإنك لبارع دقيق الملاحظة حقا.. والآن احك لي ما رأيته في (كومب تراس)..»

جلسنا داخل الكوخ حيث كان الليل البارد قد غمر الوجود.. ورحت أحكي له تفاصيل لقائي ب(لورا ليونز) وكان هو يصغى باهتمام شديد..

قال لي:

«هل تعلم مثلا أن هناك لقاءات ومراسلات بين مدام (لورا) و(ستبلتون)؟ إن هذا يقوي ما لدينا من معلومات.. ويمكن أن أجعل زوجة (ستبلتون) في صفنا بدافع الغيرة»

«زوجة (ستبلتون)؟»

«بالطبع.. فمن تقيم في داره هي زوجته لا أخته!»

«رباه! وكيف يسمح لسير (هنري) بأن يحبها؟»

«لم يحدث شيء بينهما.. ف(ستبلتون) يراقبها كالصقر- كما قلت أنت في خطاباتك- ولو آذى هذا الحب أحدا فهو سير (هنري)..»

«ولم يكذب؟»

«إن (ستبلتون) يعرف أن عذراء غير متزوجة ستفيده أكثر من زوجة» بدأ الشك يتلاعب في نفسي.

«تريد القول أن (ستبلتون) هو الغريم؟ وهو الذي كان في (لندن)؟»

«هذا هو رأيي في اللحظة الحاضرة»

«وكيف عرفت ما عرفت؟»

«لقد كان الرجل مدير مدرسة في شمال إنجلترا ومن السهل أن تسأل في إحدى الإدارات التعليمية لتعرف كل شيء عن أحد مديري المدارس.. لقد عرفت أن (ستبلتون) قد هجر مدرسته بعد انتشار الوباء مع زوجته.. زوجته لا شقيقته»

«وعلاقته بمدام (ليونز)؟»

«إن المرأة تبغى الطلاق من زوجها.. معنى هذا أنها تطمع في الزواج من (ستبلتون) الذي تحسبه غير متزوج.. ولسوف يفيدنا أن تعرف الحقيقة»

«وما غرض (ستبلتون) من كل هذا؟»

«إن في الأمر جريمة قتل.. جريمة يخططها عقل جبار وتنفذها أعصاب من فـولاذ.. وبفضل معونتك لي يا (واطسون) صار (ستبلتون) في قبضتي.. والخطر كل الخطر هو أن يضرب ضربته قبل

أن نضرب نحن ضربتنا.. أنا بحاجة إلى يوم أو اثنين لا أكثر.. أما قبل هذا فالواجب حماية سير (هنري) والحق أنك ارتكبت خطأ حين تركته وحده كل هذا الوقت»

هنا دوت صيحة مريعة.. صيحة فيها كل معاني الرعب والألم الممض.. فصحت وقد وثب قلبي لفمي:

«رباه! ما هذا؟!»

وثب (هولمز) إلى باب الكوخ ينظر ما هنالك.. لم يكن سوى الظلام بالخارج..

هنا دوت الصرخة ثانية.. لكن اختلط بها صوت آخر..

صوت زئير عميق يعلو ويهبط كالأمواج.. زئير كلب يمزق..

صرخ (هولمز):

«الكلب! كلب (باسكرفيل)! هلم يا (واطسون)! رباه!»

وراح يركض في الفلاة وأنا خلفه.. بينما الصرخة تتردد من جديد، كلها يأس وقنوط.. ثم همدت تماما ولم يعد من صوت سوى سكون الليل..

«لقد تأخرنا يا (واطسون).. تأخرنا أكثر من اللازم»

ورحنا نركض في الظلام متعثرين بالأشجار والصخور.. ونصعد الهضاب والمرتفعات.. كنا نقصد مصدر الصرخة..

أخيرا توقف (هولمز) وأشار لي كي أرى..

كان هناك جسم آدمي مكوم على الأرض.. وقد انثنى عنقه في زاوية غير معتادة..

وعلى ضوء الثقاب رأينا الرأس المهشم، وقد تناثر منه المخ في بركة من الدماء.. وعرفنا أن هذا سير (هنري باسكرفيل)

كان يرتدي سترته التي قابلنا بها في (شارع بيكر) أول مرة.. وانطفأ لهب الثقاب فانطفأت معه آمالنا..

أن (هولمز) في ألم، بينما كورت قبضتي صائحا:

«ويحك ذلك الآثم! لن أغفر لنفسي أبدا أن تركته وحده ورحت أجري تحرياتي»

«بل الذنب ذنبي.. فقد ضحيت بحياة رجل من أجل التأكد من شكوكي.. إن هذا أكبر فشل في حياتي العملية.. فما توقعت أن يجازف سير (هنري) بحياته وسط الفلاة بعد ما سمع»

ثم قال في حنق:

«يجب أن يلقى (ستبلتون) جزاءه.. فقد مات سير (تشارلز) رعبا حين رأى الكلب.. ومات سير (هنري) ساقطا من عل وقد أبصر هذا الكلب في إثره.. المشكلة هي أن نثبت أن للكلب علاقة بحادثي الوفاة»

«ولماذا لا نقبض عليه حالا؟»

«ما زالت معلوماتنا عن القضية ناقصة.. يجب إثبات ما نقول»

«إذن ماذا نفعل؟»

«علينا الآن واجب واحد هو العناية بهذا التعس»

وهبطنا من عل.. كان القمر قد بزغ مما جعل الرؤية واضحة نوعا في الضوء الباهت.. ورأيت الجثة فتذكرت ما كانت عليه من دقائق.. وتذكرت صراخها الملهوف.. ودمعت عيناي..

وانحذينا فوقها.. ففوجئت ب(هولمز) يضحك بصوت عال.. ثم نهض يرقص ويهز يدي في مرح، حتى حسبته جن..

«لحية! لحية! الجثة لها لحية»

«لحية؟»

«نعم.. إنه ليس سير (هنري) بل السجين الهارب!»

وقلب الجثة على ظهرها.. فرأيت ذلك الوجه الملتحي الذي يشي بمعالم الإجرام.. إنه حقا وجه (سلدن) المجرم الهارب..

وفهمت كل شيء.. ف(سير هنري) قد أعطى ثيابه القديمة ل(باريمور).. ومن الواضح أن هذا الأخير أعطاها ل(سلدن)..

هتف (هولمز) وقد فهم بدوره:

«الآن نفهم ما حدث.. لقد اشتم الكلب أثر سير (هنري) في ثيابه.. ولعله شمها بالذات في حذائه الذي فقده في (لندن).. ومن حظ السجين العاثر أنه ارتدى ثيابا تحمل نفس الرائحة.. وفوجئ بالكلب يطارده عبر الفلاة»

«وماذا نفعل بجثة التعس؟»

«سنضعها في كوخ حتى تصل الشرطة» وتعاونا على حمل الجثمان حين نظر (هولمز) إلى الوراء.. فرأينا (ستبلتون) قادما عبر الفلاة.. وكانت في فمه لفافة تبغ مشتعلة.. فما كاد يرانا حتى توقف برهة مترددا ثم واصل المشي حتى وصل إلينا.

فقال:

«أهذا مستر (هولمز)؟. لم أتوقع لحظة أن أراك.. لكن.. يا للهول! لا تقل إن هذه جثة سير (هنري)!»

وهرع إلى الجثة وتفحصها.. سقطت لفافة التبغ من يده.. وغمغم:

«م.. من هذا؟»

«إنه (سلدن).. السجين الهارب من (برنستون)..»

كان ممثلا بارعا.. استطاع أن يداري خيبة أمله بسرعة.. وسألنا في حيرة:

«يا للبشاعة! كيف لقى حتفه؟»

«لقد سقط من فوق الصخور»

«يا للهول! لقد سمعت صراخه فغادرت المنزل.. وكنت قلقا على سير (هنري)..»

«لماذا هو بالذات؟»

«لأنه كان مدعوا إلى داري وتأخر بعض الوقت.. فقلقت»

ثم سألنا وهو ينقل بيننا عينيه:

«هل سمعتما شيئا آخر؟»

«مثل ماذا؟»

«مثل ذلك الكلب الذي يتحدث عنه الفلاحون هنا.. ونسمع صوته في الفلاة ليلا..»

«لا لم نسمع.. ويبدو أن البائس قد جن وراح يركض في الفلاة دون روية.. فتعثر وهوى أرضا»

ثم إن (ستبلتون) نظر إلى (هولمز) وقال:

«يسرنا قدومك هنا.. ومتى ستعود إلى (لندن)؟»

«غدا على الأرجح»ألقت بعض الضوء على كل هذا الغموض»

هز (هولمز) كتفيه قائلا:

«ليس النجاح ميسورا في كل حالة.. والمحقق لا يبني عمله على أساطير»

وقررنا أن نرقد الجثمان في أحد الأكواخ حتى الصباح، مع تغطية وجهه.. ودعانا (ستبلتون) إلى داره، فأبينا شاكرين.. وعدنا إلى القصر.

قال (هولمز):

«أعصاب من حديد! لقد تمالك نفسه، فلم يبد أقل دهشة أو ذهول

لدى معرفته أن لعبته فشلت.. إن هذا الرجل جدير بنا»

«يؤسفني أنه رآك»

«أعتقد أنه سيتخذ المزيد من الحذر والحيطة وربما يكون واثقا من نفسه إلى الحد الذي يدفعه إلى المضي قدما في خططه»

«ولم لا نعتقله الآن؟»

«تلك هي المشكلة.. لن نثبت شيئا عليه.. أظن أنه حذر بما يكفي.. فلن يكون الكلام عن كلب جهنمي مجديا في المحكمة.. لقد مات سير (تشارلز) بنوبة قلبية، ولسوف يقبلها أكثر القضاة تشككا كحقيقة أين هي آثار أنياب الكلب؟ أين مخالبه؟ نحن لا نملك الدليل المادي وعلينا أن نجده»

«ومصرع السجين؟»

«نحن لم نر الكلب.. ولا يمكننا إثبات أنه طارد القتيل.. كما أنه لا يوجد دافع للجريمة.. كلا يا (واطسون).. قضيتنا واضحة لكن ما من محكمة تقبلها»

«وماذا تنتوي؟»

«سأطلع مدام (ليونز) بحقيقة زواج (ستبلتون) وإنني لآمل ألا

ينتهي الغد إلا وقد صار (ستبلتون) في قبضتنا»

«وهل ستعود للقصر معي؟»

«نعم.. فلا مبرر للاختفاء أكثر.. لكني أرجو يا (واطسون) ألا تخبر سير (هنري) بشيء عن الكلب.. فأنا أريده رابط الجأش حين يواجه ما ينتظره غدا!»

أحس سير (هنري) بالسعادة للقاء (هولمز) لكنه لم يندهش.. فهو يتوقع مقدمه منذ أيام، لكنه لم يفهم سر مقدمه بلا حقائب..

جلسنا إلى المائدة، وحكيت لسير (هنري) أحداث الليلة.. لكني لم أذكر شكوكنا في (ستبلتون) ولا الكلب.

ولقد أطلعت (باريمور) وزوجته بخبر وفاة (سلدن) كان الخبر طيبا بالنسبة ل(باريمور) لآن هذا كان هو الحل الوحيد للخلاص من هذا العبء..

أما هي فبكت في حرقة.. بكت شقيقها الذي أحبته.. والذي لم تره يوما سفاحا كما رآه الناس..

قال (هولمز) لمضيفنا:

«يبدو أنك يا سير (هنري) كنت تزمع الخروج»

قال سير (هنري):

«نعم فقد دعاني (ستبلتون) لزيارته»

«لقد كان (سلدن) التعس يرتدي ثيابك ومن حسن الحظ أن مصدر الثياب غير واضح وإلا لوجدتم أنفسكم جميعا في مأزق مع الشرطة.

إنكم جميعا مدانون بصدد التستر على مجرم وتقديم العون له»

قال سير (هنري):

«وماذا عن قضيتنا الحالية؟»

«لقد دنوت جدا من الحل.. إنها قضية معقدة مازال فيها جوانب كثيرة مظلمة.. و..»

وتصلب وهو ينظر إلى ما فوق رأسي.. حتى حسبته استحال تمثالا.. وبدا الابتهاج على وجهه.. ثم أشار إلى عدد من صور زيتية على الجدار..

وسأل:

«هذه الصورة تحفة ثمينة»

نظر له سير (هنري) في دهشة.. وقال:

«هذا إطراء جميل.. لكني لا أفهم في الفنون وكنت أحسبك لا تجد الوقت الكافي لذلك»

«إنني أعرف ما يمكنني من القول إنها تحف فنية.. هل هي تمثل أسرتك؟»

«نعم»

«من هذا إذن؟»

«هذا هو الأميرال (جورج باسكرفيل) أما هذا ذو السترة الزرقاء فهو سير (ويليام باسكرفيل)..»

«ومن الذي يرتدي المخمل الأسود.. ويضع الشملة الزرقاء على صدره؟»

«آه.. هذا هو سبب لعنة (باسكرفيل) فهو الشقي (هوجو) ذاته»

كان شكل الفتى ينطق بالهدوء والوداعة.. وأثار هذا دهشتي.. فهو في تصوري خشن المظهر ضخم الجثة.

ولماذا يرمق (هولمز) الصورة بهذا الاهتمام؟

دخلنا غرف نومنا.. لكن (هولمز) وافاني بعد قليل واقتادني إلى حجرة المائدة ومعه شمعة.. ودنونا من صورة (هوجو) فقرب منها الشمعة وسألني:

«بمن يذكرك هذا الوجه؟»

دققت في ملامح الصورة.. وقلت:

«الفم فم سير (هنري)..»

«حسن.. وهكذا؟»

قالها وهو يصعد إلى مقعد، فيمد كفه فوق الصورة ليحجب القبعة والشعر الطويل.. ثم عاد يسألني عن رأيي.. فهتفت:

«رباه!»

كانت الصورة التي أمامي هي صورة (ستبلتون)..

قال (هولمز):

«هل فهمت الآن؟ إن الفراسة مهمة في المحقق البوليسي.. ويجب أن يتعلم النظر إلى الوجوه وينسى ما حولها من شعر وثياب»

«لكن.. كأن هذه صورة (ستبلتون)..»

«هذا نموذج طيب لتناسخ الأرواح والأجساد.. والآن لا يوجد شك في أن (ستبلتون) من نسل (باسكرفيل)..»

«وهو يحاول الحصول على إرثه»

«بالظبط.. والآن نقول إن (ستبلتون) قد صار في قبضتنا، كما تصير الفراشات التي يحبسها في شباكه»

وانفجر ضاحكا ضحكته المتوعدة الشهيرة وهو يبتعد..

صحوت من النوم في الصباح، لأجد (هولمز) قد غادر القصر.. ثم عاد بعد قليل وهو يقول مغتبطا:

«لقد نصبت شباكي كلها.. وبقى أن يحط الطير بينها»

«أين كنت؟»

كنت أبلغ إدارة السجن بوفاة (سلدن) والآن نحدث سير (هنري)..»

قال سير (هنري) وهو يبتسم:

«صباح الخير يا مستر (هولمز) ما هي تعليماتي الحربية؟»

«يبدو أنك مدعو هذه الليلة للعشاء مع (ستبلتون) وأخته..»

«هذا حق.. وأتمنى أن تحضر معي»

«لن يتيسر هذا لأني راحل مع (واطسون) إلى لندن»

بدا الأسف على سير (هنري):

«كنت أتمنى أن تبقى معي فترة أطول حتى نفهم كل شيء.. إن القصر والفلاة ليسا بالمكان الذي يحب المرء أن يكون وحيدا فيه»

«أرجو أن تثق بي.. وعليك أن تعتذر لمضيفك لأن ظروفا مهمة اضطرتنا للسفر إلى (لندن) لكننا نأمل في العودة سريعا.. يجب أن تذكر هذه العبارة حرفيا»

«سأفعل ما دمت تريده»

«سنرحل عقب الإفطار.. لكن حقائب (واطسون) ستظل هنا»

قال سير (هنري):

«سآتي معكما إلى (لندن) فلا أريد أن أبقى وحدي»

«لقد وعدتني يا صديقي أن تفعل ما أطلب منك»

«حسن.. كما تريد»

«ثمة نقطة أخرى.. يجب أن تعود إلى القصر على قدميك من دون

المركبة.. فهمت؟»

«أمشي في الفلاة وحيدا ليلا؟!»

«نعم»

«لكن هذا هو عين ما حذرتني منه»

«هذا ضروري.. وعليك أن تنفذه»

«ليكن»

«وعليك ألا تعبر الفلاة إلا من ناحية الممر الموصل من دار (ستبلتون) إلى طريق (جريمبن).»

«حسن»

بدا لي هذا غريبا.. ف(هولمز) ينوي ترك سير (هنري) في وقت عصيب حقا.. لكنه كان يطالبنا بالطاعة العمياء..

وفي محطة (كومب تراس) فارقنا مركبة سير (هنري) واتجه (هولمز) إلى صبي صغير يقف على المحطة فقال له:

«مرحبا يا (كارترايت) ستركب هذا القطار إلى (لندن) ومن هناك ترسل برقية إلى سير (هنري) تحمل توقيعي، تخبره فيها أن يبحث عن

مفكرتي.

والآن هل توجد برقيات لي؟»

ناوله الصبي برقية، فضها (هولمز) فكان بها:

«تسلمت برقيتك- قادم ومعي أمر الاعتقال- أصل الساعة ٣٠:

٥- ليستراد)

قال (هولمز):

«إن (ليستراد) هو أبرع مفتشي (سكوتلانديارد)، ومعونته مهمة لنا.. والآن هلم يا (واطسون) نزر مدام (لورا ليونز)..»

فهمت خطة (هولمز) إنه يحاول خداع (ستبلتون) ليتوهم أننا عدنا إلى (لندن) بينما نحن في الجوار مستعدون للتدخل.

واتجهنا إلى مدام (لورا) أو(ل. ل) حيث قدم لها (هولمز) نفسه ودخل في الموضوع دون مقدمات.. فقال:

«لقد عرفت ما ذكرته لدكتور (واطسون) بصدد وفاة سير (تشارلز) وعرفت ما لم تذكريه!»

قالت في تحد:

«لم أذكر ماذا؟»

«العلاقة بين موعدك للرجل ووفاته في ذات المكان والزمان.. إن الشرطة تعتبر الوفاة جريمة قتل.. ولدينا أدلة قوية ضد (ستبلتون) وزوجته»

وثبت من المقعد صائحة:

«زوجته؟! إن (ستبلتون) عزب»

هز كتفيه في هدوء وقال:

«هذا لم يعد سرا»

«إذن أثبت ما تقول»

أخرج من جيبه بعض الأوراق.. وقال:

«هوذا دليل مؤكد.. صورة فوتوغرافية التقطت في (يورك) منذ أربعة أعوام.. وعلى ظهرها كتب (مستر ومدام فاندلير) هل تعرفت الوجهين؟»

التمعت عيناها لمعة مخيفة.. وبعد صمت قالت:

«لقد عرض هذا النذل عليَّ الزواج إذا هجرت زوجي.. ولماذا؟

واضح أنه كان يتلاعب بي تلاعبا شريرا.. فلم أعد ملزمة بكتمان أسراره.. سلني عن أي شيء تريد:

لكن- فاعلم- أنا لم أتعمد قط لإيذاء سير (تشارلز) حين كتبت ذلك الخطاب له»

«حسن.. أنا أثق بما تقولين تماما.. هل كتبت تلك الخطابات استجابة لمطلب (ستبلتون)؟»

«إنه من أملاه عليَّ»

«ثم أقنعك بعدم الذهاب للموعد؟»

«نعم.. قال لي إن كرامته تمنعه من أن يترك أحدا يدفع لي مالا.. وهكذا لم أذهب للقاء سير (تشارلز) وعرفت نبأ وفاته في الصباح.. وعندها أقنعني (ستبلتون) أن أتكتم شأن الزيارة، لأن الوفاة حدثت في ظروف مريبة.. ولربما تكاثرت الشبهات حولي لو تكلمت»

«ألم تشكي في شيء»

ترددت وقالت:

«نعم.. كنت أثق به.. وكنت أنتوي أن أخلص له على طول الخط»

قال (هولمز):

«لكن معرفتك سره تضعك في خطر داهم.. وإن اعترافك قد أنجاك بأعجوبة من ميتة شنيعة»

على المحطة وقفنا ننتظر القطار القادم من (لندن).

ودخل القطار المحطة.. فبرز لنا من عربات الدرجة الأولى رجل ضئيل.. وعرفت أنه المفتش (ليستراد) كان بادي الاحترام ل(هولمز) وأدركت أنه يؤمن بنظرياته في البحث الجنائي إلى حد كبير على عكس باقي رجال (سكوتلانديار) الذين يرون في الاستدلال المنطقي مضيعة للوقت.

سأل (ليستراد):

«هل جد جديد؟»

قال (هولمز):

«هي أروع قضية قابلناها منذ أعوام.. وأرى أن نتناول العشاء إلى أن يحين وقت العمل بعد ساعتين.. هل رأيت (دارتمور) من قبل؟ لا؟ أظن أنك لن تنسى هذه الزيارة أبدا!»

إن الكتمان هو أسوأ عيب في شخصية (هولمز) فهو يحتفظ بخططه

لنفسه ولا يبوح بها لامرئ مهما كان.. وبعض هذا يعود إلى حبه لإبهار من حوله.

لكن الجزء الأكبر يعود لطبيعة مهنته التي تتسم بالاحتياط وعدم التساهل في التفاصيل.

لكن كتمانه هذا يسبب ضيقا بالغا لمن حوله.

وكان الكيل قد طفح بي في تلك الليلة، ونحن نعبر الفلاة في الظلام.. فنحن في آخر فصول المأساة ومن حقي أن أعرف.. لكن (هولمز) ظل صامتها لا يقول حرفا..

وشعرت بهواء الليل البارد، ورأيت ظلام المروج الدامس اللامتناهي، ولم أتمالك أن أرتجف.. إن حوافر الخيل تقربنا من نهاية المأساة.

دنونا من قصر (باسكرفيل) فترجلنا.. وصرفنا السائق.. ثم مشينا نحو دار (ستبلتون) وتساءل (هولمز)

«هل مسدسك معك يا (ليستراد)؟»

ابتسم الرجل في ثقة:

«إنه لا يفارق جيبي»

«حسن»

ونظر المفتش في رهبة السفوح المظلمة والضباب الكثيف فوق مستنقعات (جريمبن)؛ فقال في تطير:

«هذا المكان لا يريحني كثيرا»

قال (هولمز):

«هذا منزل (ستبلتون) سندنو منه في هدوء تام»

ومشينا في حذر إلى هناك.. وعلى بعد مائتي متر قال (هولمز):

«فلنتوار وراء هذه الصخور»

ثم سألني:

«ما هذه النافذة المضاءة أمامنا؟»

«إنها نافذة غرفة الطعام»

«إذن ازحف في هدوء.. وانظر خلسة لترى ما هنالك»

ونظرت من الزجاج فلم أر سوى سير (هنري) و(ستبلتون)

يدخنان ويرشفان القهوة، كان (ستبلتون) يثرثر بغزارة بينما سير (هنري) واجم الوجه صامت.

وخطر لي أنه يفكر قلقا في الرحلة التي سيقطعها في الفلاة ساعة العودة.. فتبدو له الفكرة مفزعة.

نهض (ستبلتون) وغادر الغرفة، تاركا سير (هنري) وحده يدخن.

سمعت صوت خطواته فوق الأرض المفروشة بالحصى.. ثم رأيته يخرج من الدار فيتجه إلى مبنى صغير في الحديقة.. فأولج المفتاح فيه.. وهنا سمعت ضوضاء غريبة، وصوتا أقرب إلى سلاسل تفك.. ثم عاد إلى المنزل..

عدت في صمت إلى (هولمز) وأخبرته بما كان فسألني:

«تقول إن السيدة ليست معهما؟»

«لا»

«إذن أين هي؟»

وبدأت سحابة كثيفة من الضباب تنتشر فوق المستنقعات.. وازدادت كثافة كأنها- في ضوء القمر- جبل جليدي.. وراحت تدنو منا..

رآها (هولمز) فبدا عليه القلق.. وقال:

«إنها تدنو منا يا (واطسون)..»

«وما خطر هذا؟»

«سيجعل هذا الرؤية متعذرة علينا.. وأملنا الوحيد الآن في أن يغادر سير (هنري) الدار قبل أن تحجبه هذه السحابة عنا تماما»

وزحفت السحابة ببطء نحو المنزل.. حاصرت جدرانه، وغطت النافذة المضاءة، وبدت قمم الأشجار كأنما تطل من محيط دخاني كثيف.

«اللعنة!»

قالها (هولمز) وهو يضرب الصخر بقبضته وأردف:

«بعد نصف ساعة لن يبصر أحدنا يده.. يجب أن ينصرف الآن!»

«فلنرتفع قليلا كي نخرج من هذا الضباب»

«نعم»

وبدأنا نصعد المرتفعات في بطء حتى خرجنا من السحابة الكثيفة.. لكن (هولمز) منعنا من أن نصعد أكثر وألصق أذنه على الأرض.. ثم تهلل وجهه وهتف:

«حمدا لله.. شخص قادم!»

وسمعنا صوت خطوات تدنو مسرعة، فانكمشنا وسط الصخور نرمق الضباب.. وبعد هنيهة برز من الضباب رأس سير (هنري) وبدت عليه الدهشة إذ لم يتصور سرعة انتشار الضباب في الفلاة.

ومشى يخف السير في الطريق الممهد قاصدا قصره، وكان يتلفت حوله في توجس يمينا ويسارا.

هنا صاح (هولمز) وهو يخرج مسدسه:

«إنه هو!»

وسمعنا صوت خطوات وسط الضباب.. لكننا لن ندر ما يتوقعه (هولمز) ونظرت إلى وجهه لأرى ما يبغيه، فرأيته يشحب وتلتمع عيناه.. وفجأة فتح شفتيه في ذهـول.. وسمعت صرخة هلع من (ليستراد)..

وأمام عيني رأيت مشهدا مروعا لا يصدق، جعل عقلي يشل تماما..

رأيت كلبا أسود عملاقا.. لكنه لا يمت لعالمنا بصلة.. النار تنبعث من فمه المفتوح.. واللهب يخرج من عينيه..

وضوء متألق يحيط بفمه وعينيه وعنقه كأنما جاء من جهنم.

لقد رأيت كابوسا يخرج من الضباب..

وكان يركض في خطوات واسعة نحو سير (هنري)..

تجمدنا حيث نحن عاجزين عن اتخاذ قرار..

وحين عدنا لروعنا كان الكلب قد مر من أمامنا يركض تجاه ضحيته.

عندها أطلقت و(هولمز) مسدسينا في اللحظة ذاتها.

صرخ الوحش لكنه واصل ركضه للأمام.. ورأينا سير (هنري) يلتفت للوراء فيرى الهول القادم نحوه..

تسمر في مكانه وبدا الرعب على وجهه الشاحب ورفع يديه للسماء..

أما نحن فقد أعادتنا صرخة الكلب إلى عالمنا إن المخلوق الذي يجرح يمكن أن يقتل كذلك.. كان (هولمز) يعدو عدو الظليم.. فسبقني وسبق (ليستراد)..

ومن بعيد سمعنا صراخ سير (هنري) وزمجرة الكلب.

كان الكلب جاثما فوق الرجل، يحاول تمزيق عنقه بأنيابه..

لكن (هولمز) أفرغ الرصاص في ظهر الكلب.. فزأر زأرة مريعة.. ثم تدحرج ساقطا على ظهره، وأقدامه ترتجف في الهواء.. وهمدت حركته..

دنوت من الكلب لاهثا.. ولاصقت بمسدسي رأسه لكنه كان قد مات..

كان سير (هنري) قد فقد وعيه، فراح (هولمز) يفك ربطة عنقه.. وحمدنا الله تعالى لأنه خال من الجروح..

سكب (لستراد) في فم الضحية بعض (البراندي)، ففتح عينيه ورمقنا في هلع وهتف:

«رباه! ما كان هذا؟»

«أيا كان فقد مات.. وانتهت أسطورة كلب العائلة»

ورحنا نتفحص الجثة..

كان كلبا عملاقا بادي الشراسة والوحشية.. وقد توهج ضوء أخضر حول فكيه وعينيه.. مددت إصبعي ومسحت.. ثم تفحصته هاتفا:

«مادة فوسفورية!»

قال (هولمز):

«حقا.. وواضح أنها بلا رائحة مما يؤثر على شم الكلب.. خالص اعتذاري يا سير (هنري) على هذه التجربة المروعة.. لكننا كنا نأمل في أن نقتله أسرع من هذا لولا الضباب»

«إنك أنقذت حياتي»

«نعم.. ونحمد الله على ذلك.. هل يمكنك الوقوف»

تحامل سير (هنري) على قدميه، فوقف وهو غاية في الشحوب والوهن.. واستند إلى صخرة دافئا وجهه بين يديه.

قال (هولمز):

«سوف نتركك هاهنا فلم يعد ثمة خطر عليك.. أما الآن فلابد أن ننطلق لنقبض على المجرم»

وانطلقنا نركض نحو منزل (ستبلتون) قال (هولمز) ونحن نجري:

«من المحال أن نجده في المنزل.. لقد سمع الطلقات حتما وعرف أن الفريسة أفلتت»

«ربما لم يسمع»

«لا.. لابد أنه قد هرب.. لكن لابد من تفتيش المنزل»

كان باب المنزل مفتوحا.. فدخلنا ورحنا نفتشه لم تكن حجرة مضاءة سوى حجرة الطعام.. ورحنا نبحث في كل حجرة فلم نجد أثرا ل(ستبلتون).. إلا أننا وجدنا غرفة موصدة في الطابق العلوي.

قال (ليستراد):

«صوت حركة بالداخل.. ثمة إنسان هاهنا»

بالفعل كان هناك صوت أنين.. فركل (هولمز) الباب بقدمه.. واندفعنا إلى الداخل وقد صوب كل منا مسدسه في اتجاه.

رأينا مشهدا عجبا.

كانت الحجرة ملأى بالبرطامنات التي يحنط فيها فراشاته النادرة.. وقد وضعت على الرفوف في كل صوب.

وفي وسط القاعة كان عمودا خشبي ربط إليه جسد مشدود.. وقد غطى حتى عسر علينا تمييز.. أرجل أنثى..

مزقنا الأغطية فإذا هي مدام (ستبلتون) وسقط رأسها على صدرها إذ كان قد أغشى عليها، فرأينا على عنقها حزا أحمر.. من أثر سوط..

هتف (هولمز):

«تبا له من وحش! أعطها جرعة من (البراندي) يا (لستراد) فقد عذبها الحيوان حتى فقدت وعيها»

أخيرا فتحت عينيها فهتفت:

«هل نجا؟»

«بل لن يفلت منا يا سيدتي»

«لا أتحدث عن زوجي.. أتحدث عن سير (هنري)..»

«نعم نجا»

«والكلب؟»

«مات»

«حمدا لله!»

وتنهدت وقالت:

«لكم عذبني (ستبلتون) وآذاني.. لكني تحملت كل هذا أملا في الظفر بمحبته»

وتهاتفت.. فقال (هولمز):

«إذن.. قولي لنا أين نجده.. لنعاقبه»

قالت:

«يوجد مكان واحد.. هو منجم مهجور وسط المستنقعات.. لقد كان يربي الكلب فيه.. وبه ملجأ يختفي فيه.. إنه هناك»

دنا (هولمز) من النافذة فرأى الضباب بالخارج قال:

«من المستحيل أن نعبر المستنقعات هذه الليلة» ضحكت المرأة في وحشية وقالت:

«لن يستطيع أن يجد طريقه في هذا الضباب.. فهو يسترشد بعيدان خشبية تدله على الطريق»

تركنا (ليستراد) يحرس البيت.. وعدنا إلى سير (هنري) واصطحبناه إلى القصر لتنتهي هذه الليلة الرهيبة.

وفي الصباح اصطحبنا مدام (ستبلتون) إلى المستنقعات، فأرشدتنا إلى المنطقة بين الأوحال.. وكانت متحمسة إلى حد كبير، فقد عذبها زوجها كثيرا..

كان هناك طريق متعرج.. غرست على جانبيه أعواد خشبية متباعدة تدل على الطريق الصحيح.. بينما رائحة التعفن تزكم أنوفنا.

وحين كانت قدم أحدنا تزل كان يشعر أن الأوحال تجذبه إلى أعماقها بيد حديدية.

ووجدنا آثار أقدام تدل على أن هناك من سبقنا عبر هذا الطريق المرعب.. لكن الآثار اختفت بعد قليل بسبب تقلب الأوحال.

ويبدو واضحا أن (ستبلتون) لم يستطع الوصول إلى كهفه بين طبقات الضباب.. فلابد أنه زل وسقط في مستنقعات (جريمبن) الرهيبة، فابتلعته وخلصت العالم منه.. وفي أحد الأكواخ وجدنا سلسلة عملاقة وطوقا حديديا وبعض العظام، ففهمنا أن (ستبلتون) كان يربي كلبه هنا..

قال (هولمز):

«هذا هو سر الصوت الذي كان يروع الفلاحين.. فالكلب كان هاهنا يعوي.. لكن (ستبلتون) كان يحمله إلى داره أحيانا حين ينوي الهجوم.. أما هذه العلبة فأظنها تحوي المخلوط الفوسفوري إياه، الذي كان يطلي به الكلب.

«لا غرابة في أن كل من رأى الكلب يشع في الظلام راح يركض ذعرا.. إلى حد أن سير (تشارلز) أصيب بنوبة قلبية.. لقد كان تدبيرا جهنميا حقا.. ونجح في جعل الأسطورة رهيبة ملموسة»

وفي ليلة باردة من ليالي (نوفمبر) جلست و(هولمز) جوار المدفأة، نتحدث عن هذه القضية الرهيبة..

قال (هولمز):

«لقد أسفرت أبحاثي عن وجود قرابة قوية ل(ستبلتون) وآل (باسكرفيل).. فالأخ الأصغر (رودجر) الذي فر إلى أمريكا الجنوبية قد تزوج هناك.. وأنجب طفلا أسماه (روجر) كبر الفتى وتزوج فتاة تدعى (بيريل جارسيا) وهي حسناء كوستاريكية.. ثم اختلس بعض المال وغير اسمه إلى (فاندلير)، وفر إلى إنجلترا لينشئ مدرسة»

«بعد قليل تدهورت المدرسة وساءت سمعتها لذا غير (فانلير) اسمه إلى (ستبلتون) وقصد جنوب إنجلترا، وكان شغوفا بعلم الأحياء.. حتى صار حجة فيه.. ويبدو أنهم أطلقوا اسمه على نوع من الفراشات»

«وعرف الفتى أن شخصين يحولان بينه وبين امتلاك ضيعة كاملة.. فجاء إلى (ديفون شاير) مصمما على الخلاص منهما، وأعلن أنه غير متزوج وأن من معه هي شقيقته»

«ثم إنه بدأ يوثق معرفته بسير (تشارلز)، ومنه عرف كل شيء عن أسطورة الكلب الجهنمي الذي يطارد الأسرة منذ قرون.. وبدأت

الفكرة تختمر في ذهن (ستبلتون)..»

«إن السير (تشارلز) يؤمن بالخرافات وقلبه واهن.. لذا اتجه (ستبلتون) إلى متجر (روس ومانجلز) في (لندن)، فابتاع كلبا قويا شرسا.. ودخل به إلى المقاطعة.. ثم أخفاه في كوخ وسط المستنقعات وعلمه الافتراس، وراح ينتظر فرصة سانحة يغادر فيها سير (تشارلز) القصر إلى الفلاة وحده»

«حاول (ستبلتون) أن يجعل زوجته تغري سير (تشارلز) بالخروج.. لكنها أبت ذلك.. ولم يفلح الضرب في إقناعها»

«بدأ يوطد علاقته بالمسكينة (لورا ليونز) وأغراها بالزواج منها.. ثم جعلها تكتب تلك الرسالة إلى سير (تشارلز) تطلب منه لقاءه تلك الليلة.. ثم أقنعها بعدم الذهاب»

«وفي المساء أعد هو الكلب، وطلاه بالمادة الفوسفورية ثم ساعده على الوثب إلى الممر الذي كان سير (تشارلز) فيه.. أصيب الرجل بالهلع وراح يجري صارخا مبتعدا عن القصر.. وتكفل الرعب ووهن القلب بقتله.. وكان الكلب يجري على العشب فلم يترك آثار أقدام واضحة.. إلا حين دنا من الجثة ليتشممها»

«كانت زوجة (ستبلتون) تتوقع خطته الشريرة لكنها لم تعرفها صراحة.. أما (لورا ليونز) فلم تشك في شيء إلا بعد ما حدثت الوفاة»

«بعد هذا جاء دور سير (هنري)..»

«لقد اكتشف (ستبلتون) أن هناك وريثا آخر..

لهذا سافر إلى (لندن)، ووضع على وجهه لحية مستعارة وراح يراقب د. (مورتيمر)..»

«لكن زوجة (ستبلتون) أرادت إنذار سير (هنري) لذا كانت هي صاحبة الرسالة ذات الحروف الملصقة التي قرأناها»

«وفي هذا الوقت تمكن (ستبلتون) من سرقة حذاء سير (هنري) من الفندق، ولما وجده جديدا لم يلبس اضطر إلى سرقة حذاء آخر.. كان بحاجة إلى أثر يشمه الكلب»

«ثمة نقطة تحيرني: لو أن (ستبلتون) تمكن من قتل سير (هنري)، فكيف كان سيفسر إقامته اسم مستعار قرب القصر؟

إن هذا يزيد من الريبة حوله»

«هذا سؤال عسير يا (واطسون) لكن مدام (ستبلتون) ترجح أنه

كان سيعود إلى أمريكا الجنوبية، حيث يتوجه إلى القنصلية البريطانية ويعلن استحقاقه للميراث.. وربما كان سيعود إلى (لندن) ليتنكر ويخفي وجود (ستبلتون) تماما.. ثم يطالب بإرثه»

«والآن يا (واطسون) صار من حقنا أن ننعم بالراحة، بعد شهر من البحث في هذه القضية الغامضة الشاقة».

آرثر كونان دويل